من اجل مجتمع صالح

2

الأخلاق الاجتماعية البانية في سورة الحجرات

رضوان ابن شقرون

الـكـتـاب : الأخلاق الاجتماعية البانية في سورة الحجرات
السـلسـلـة : من أجل مجتمع صالح (2)
الـمـؤلـف : رضوان ابن شقرون
الطبعة الأولى : صفر 1433 هـ - فبراير 2012م.
الـمـطـبـعـة : مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء
الإيـداع : 2012 MO 0166
رقم السلسلة : 2028-7089

الأخلاق الاجتماعية البانية
في
سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت،

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب﴾

[سورة هود 11/ 88]

«ثلاثة من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدُّوا بشيءٍ من عَمله: تقوى تحجزه

عن معاصي الله عز وجل، وحِلمٌ يكُف به السفيه، وخُلُقٌ يعيش به في الناس»

[حديث رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ذكره الخرائطي، والهيثمي، والسيوطي، وابن أبي الدنيا]

إهداء

إلى الحبيب الشفيع الذي استنار بالقرآن
وأنار سبيل الهدى والخير والرشاد للعالمين بالقرآن
سيدنا محمد عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام

إلى من ربياني على القرآن وحرصا منذ نعومة الأظفار على أن أحفظ القرآن
إلى روح والدي سيدي محمد سايلا الله له الرحمة والمغفرة والرضوان
إلى التي رضعت منها حب القرآن وأكملت على يدها حفظ أوايل سور القرآن
إلى والدتي الغالية للا فاطمة أمد الله في عمرها وبارك لها فيه ولنا فيها

إلى كل أخ وأخت ممن تربى معي في أحضانهما وشاركني بنوتهما وحضنهما
وذاق معي صرامة الأبوة وصفاء البنوة ووفاء المحبة

مقدمة

بسم الله منزل القرآن وحافظه، والحمد لله الآمر بالعمل به وبالاقتداء بمبلغه عنه بإذنه، وصل اللهم وسلم على الهادي إلى صراطه القويم، النبي المصطفى الكريم، سيدنا محمد الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وارض اللهم عن الصحابة والتابعين، وعمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم برحمتك ياأرحم الراحمين.

أما بعد فإن الغوص في كلام الله عز وجل على صدف المعاني، والتنقيب على جواهر الدلالات ومقاصد المباني، ليس بالأمر الهين على من يقدر قيمة البيان القرآني، ويستشعر روعة أسلوبه الرباني؛ وهي سباحة تحتاج إلى أذرع قوية ومهارة خاصة، ومعرفة بعلوم القرآن والسنة واللغة والبيان واسعة، ودراية بالمقاصد الشرعية والقواعد المرعية جيدة، علماً ومعرفةً وسلوكاً ومنهاجاً، وتقتضي فكراً مطلعاً مستعداً لتمحيص الآراء وتقليبها وعرضها على محك النظر السليم، قادراً على المناقشة والاستنتاج والاقتناع بالحق والصواب أينما وجد، واقتراح المناسب الصحيح من المعاني والدلالات التي يهدي إليها حسن الفهم واقتضاءات السياق الزماني والمكاني والنفسي والاجتماعي، مما تعاني البشرية في زماننا من ضلالات الانحراف عنه وعواقب الزيغ عن رشده وشيوع سلبياته وسوء نتائجه. وأنى لعبد فقير ضعيف مثلي أن يهتدي إلى تلك الغايات، أو يحقق تلك

الطموحات!! فالقرآن الكريم قد تولى الله عز وجل حفظه لأنه خاتم الكتب السماوية والمهيمن عليها، وهو الكتاب الذي شاءت عناية الله الحليم الكريم أن يكون في كل زمان ومكان إمام الإنسانية ورائدها، ففيه نبأ ما قبلنا، وفيه حكم ما بيننا، وهو حبل الله المتين، والصراط المستقيم. وإذا اشتغل بتفسيره المتقدمون والمتأخرون فهو الكتاب الذي لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وذلك ما يشجع كل من يحسن التفتح على القرآن والتعامل مع القرآن في كل عصر ومصر على محاولة تبينه أولا، ثم محاولة تبيينه وتبليغ ما مكنه الله عز وجل منه وفتح به عليه للآخرين.

ولكن همّاً كان يؤرقني باستمرار ويشغل بالي وأنا أتأمل الآيات البينات هو فوائدها في مجال إصلاح المجتمع وقد آلمني ما عليه مجتمعنا على طول العالم الإسلامي وعرضه من مشاكل نفسية وأخلاقية واجتماعية وسياسية، بسبب الابتعاد عن القرآن الكريم أو إهمال العمل بأحكامه وتوجيهاته، أو الغفلة عما يحاك للأمة ولدين الله وكتابه ورسوله وللقيم الخلقية والدينية والاجتماعية في ظلمات العولمة والمناهج الغريبة عن أمتنا الضاربة لمقوماتنا، مما أوقع المجتمعات المعاصرة في كثير من الفتن والأهوال والأمراض العضوية الفتاكة والنفسية الخطيرة التي الأصل أن المجتمع الإسلامي بعيد عنها محمي من عدواها لولا انبطاح كثير من أبنائه أمام حضارة مستوردة لم يعرف الناس كيف يغربلونها ويحسنون الاستفادة من محاسنها والاحتراز من مساوئها، فإذا الناس يقعون في السيء الموبق من الحالات والخبيث الضار من العادات، ويأخذون القشور والسلبيات وتتسرب إليهم الأمراض ويغرقون في المشاكل والمصائب ويعجزون

عن إيجاد الحلول، مع أن بين أيديهم القرآن يزخر بالهداية إلى الأسباب الواقية والوسائل المنجية، ويرغب في الخير العاصم من الآثام والموبقات المهلكة بكل الوسائل الإيمانية الترغيبية والزجرية الترهيبية، لو رجع الناس إليه! ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ (سورة الفرقان 1/25).

فكان دأبي بناء على ذلك السير والعمل والفكر في ضوء هذا القرآن الذي ينير الطريق وينور الفكر ويهدي إلى الرشد ويصلح الفرد الفاسد ويحمي المجتمع من الزلل والضلال ويعلي شأن الأمم ويمهد للترقي ويؤسس للحضارة الحقيقية البريئة من السموم، العبقة بالخير والصلاح في الحال والمآل.

ولقد يسر لي الله العلي القدير بفضله ومنه أن أعيش مع القرآن الكريم منذ طفولتي الأولى مذ كنت صبيا فحفظته وأنا دون العاشرة، ثم قرأت في مرحلة التلمذة والتلقي شيئا من التفسير بالقرويين على من أدركت من كبار شيوخه أمثال سيدي العربي الشامي، وسيدي عبد العزيز بلخياط، ثم سيدي بوبكر جسوس رحمهم الله برحمته الواسعة وسائر شيوخنا الكرام.

وبعد زمن هيأ لي سبحانه وتعالى فرص الاشتغال ببعض سور الذكر الحكيم دراسة وتدريساً للطلبة الجامعيين تفسيرا وبلاغة وبيانا، ثم وفق الله الكريم سبحانه لسبر أغوار تلك السور بالبحث والتأمل والفهم، فاجتمعت لدي دراسات كنت أرقب أن ييسر الله عز وجل فرصة نشرها.

ثم إني قد ابتليت بمسؤولية علمية إدارية فكانت فرصة لتحرير سلسلة من المقالات حول سورة الحجرات التي عايشتها آية آية وموضوعا موضوعاً كانت تنشر في حلقات متتابعة بمجلة «التذكرة»

التي كان يصدرها المجلس العلمي المحلي للدار البيضاء. ولما وضع الله عني المسؤولية الإدارية، كانت حلقات السورة قد اكتملت أو كادت، فعكفت على مراجعتها وتحريرها للنشر مجتمعة؛ وكنت في مرحلة تهييء المقالات أنهمك متأملا قارئا للتفاسير على اختلاف مشاربها ومناهجها، مستعينا بمصادر ومراجع في علوم القرآن وعلوم الفقه والأصول والحديث والسيرة النبوية، وفي اللغة والنحو والتاريخ والطبقات؛ فكان من أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها أو استفدت منها كتب الطبري، والبغوي، والزمخشري، وابن العربي، وابن عطية، والرازي، والقرطبي، وابن كثير، والبيضاوي، والخازن، وابن عجيبة، وابن عاشور، ومحمد الأمين الشنقيطي، وسيد قطب؛ والأئمة مالك والبخاري ومسلم، وأصحاب السنن؛ وابن هشام، والسهيلي، وابن القيم؛ والشهاب القرافي، وأبي إسحق الشاطبي، والسيوطي.. وغير هؤلاء وأولئك ممن استفدت منهم في اكتساب المادة الأولية أو استعنت بهم في التفكر والتدبر واستكشاف كنوز المعاني والدلالات والأحكام، وأثبتّ قائمة كتبهم في لائحة المراجع الملحقة بالآخر.

وقد قسمت دراسة السورة إلى فصول هي فقر تتكون كل واحدة من آية أو أكثر مما يتناول موضوعا موحدا أو توجيهات ربانية متناسقة مترابطة، ودرست كل فقرة دراسة مستقلة عن الأخرى لكنها متساوقة متكاملة في عرض التصور العام لموضوع السورة ومضامينها متعمقة في تناول مقاصدها ودلالاتها وأساليبها.

واتبعت في دراسة الآي والمواضيع منهج تقديم الموضوع الخاص بالفقرة، بمدخل يضع القارئ في صلب الفكرة وأهداف تناولها، ثم أذكر أسباب النزول لأنها تساعد على استجلاء المعاني

وأدراك المقاصد؛ وإن كان هناك اختلاف في القراءة سقته مبينا أوجهه، ثم أبسط معاني الألفاظ والعبارات القرآنية في سياقها من النواحي اللغوية والموضوعية، وأغوص عن الدلالات والمقاصد وأرصد الأحكام والإشارات، مع إعراب الكلمات والجمل بدقة وتفصيل حينا وإجمال وإيجاز حينا وبيان الصور البلاغية في إطار تذوق جمالية النص القرآني البديع لأن الإعراب وكشف الأساليب التعبيرية والصور البيانية يعين على صحة الفهم وحسن الإدراك وجميل التذوق وصحيح الاستنتاج والاستنباط، فالقرآن قمة الفصاحة وذروة البلاغة وروعة الجمال تعبيرا وتصويرا وإبلاغا، ثم أحاول استنباط ما يمكن من الأحكام والتوجيهات الإيمانية والاجتماعية التي تتبين لي من الآية أو الآيات، متحريا ما أثر من ذلك عن السلف والخلف، محاولا ربط ذلك بواقعنا الحاضر ما أمكن، خدمة للهدف العام من هذه السلسلة التي تدخل هذه الدراسة في إطارها: «من أجل مجتمع صالح»؛ ثم أختم كل فصل بفقرة أنزوي بالقارئ من خلالها في محراب الآيات فأعرض فيها بعض الأحاسيس والمشاعر التي تثيرها في نفس القارئ المتأمل المتدبر، وختمت العمل كله بمسرد للمصادر والمراجع التي استفاد منها هذا العمل بإذن الله تعالى وعونه.

وربما استكثر القارئ الإحالات والهوامش التي تتخلل كل فصل، لكن الذي اقتضى مني ذلك أمران اثنان أولهما المنهج المختار في الاستعانة على التبين والبيان بالتفسير المأثور ضبطا للفهم وإلجاما لعنان الفكر من التيه أو الشطط في استعمال الرأي وأنا أحاول الاستنتاج والاستنباط والتنزيل في واقع المجتمع الإسلامي المعاصر ومعالجته بما ترشد إليه آيات الله البينات؛ والثاني الأمانة العلمية التي

تقوم على عزو الأفكار والآراء إلى أصحابها ورد المعلومات إلى مصادرها، وموضوع البحث في القرآن وتفسيره وتأويله خاصة والبحث في العلوم الشرعية عامة أحق بهذا المنهج وأجدر كما لا يخفى.

وفي تخريج الآيات أثبت الاسم الكامل للسورة التي منها الآية، ثم أعقبه برقم السورة في ترتيب المصحف، ثم رقم الآية في سياق السورة، وبين الرقمين خط فاصل مائل؛ أما الأحاديث فاعتمدت في تخريجها ما تيسر من مصادر السنة الصحيحة مع ذكر الصحابي راوي الحديث عن رسول الله ﷺ في الغالب، فإن لم أجد المتن في الصحاح عزوته إلى الكتب التي وجدته فيها.

فإن كان في هذا العمل شيء من الصواب فبتوفيق من الله الكريم المنان، ومن وجد فيه غير ذلك فليعف وليدع الله لكاتبه بالمغفرة، وحسبي أني استعنت بالله وتوكلت على الله وبذلت ما تيسر من الجهد في البحث والدرس والاستنتاج والربط بواقع الأمة قدر الإمكان رغبة في إصلاحها؛ وأسأل الله العلي القدير أن نكون ممن يدعو إلى القرآن بالقرآن فنهتدي بالقرآن إلى الصراط المستقيم ويهدي الله بنا إلى الارتباط بالكتاب الحكيم والعمل بأحكامه والوقوف عند حدوده والاستنارة بهديه: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ (سورة الإسراء 9/17)، كما أسأله سبحانه أن يكون عملنا صالحا خالصا، وأن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء همومنا وذهاب أحزاننا، وأن يجعلنا صالحين مصلحين، بالقرآن معتصمين، وبالسنة مستمسكين وبسيدنا محمد ﷺ مقتدين، إنه سميع مجيب.

رضوان ابن شقرون

الدار البيضاء غرة ربيع الأول 1433 ـ أواخر يناير 2012

1

وجوب اتباع الكتاب والسنة وعدم مخالفتهما

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(1).

مدخل:

من الناس قوم يعيشون اليوم في غفلة عما يجب عليهم في حق ربهم من الإيمان والتقوى، وفي حق نبيهم الكريم محمد ﷺ من الاتباع والاقتداء، والاحترام والتأدب، والذود عن مكانته ﷺ وعترته، وفي غياب عن الواجبات والقيم الخلقية والاجتماعية التي يجب التحلي بها نحو الكون والكائنات عامة؛ فهم في حاجة إلى الإحساس بهذه الواجبات المشروعة التي جاءت سورة الحجرات منذ مطلعها تلفت الأنظار إليها، وتحذر من بعض الأعمال السلبية والسلوكات الخاطئة التي لا تتناسب مع درجة الإيمان والتقوى، ولا تليق بمكانة الرسول الأكرم ﷺ ولا تحفظ للمجتمع كرامته ورشده وسلامته، وقد تحبط الأعمال والمجهودات أو تهدم الأسر والمجتمعات، أو تقوض الدول والحكومات.

وهذه الموضوعات لصيقة بالتربية الفردية وتكوين الشخصية الإيمانية والاجتماعية الهادئة الوديعة والإيجابية، مما أمست الحاجة إليه

في زماننا ملحة، حتى يحرص كل مسلم على أن يتأدب مع الله ورسوله ويقوم بمسؤولياته الاجتماعية والبيئية والإنسانية باعتبار ذلك من أعظم أسباب الصلاح والسماحة والتقارب، ومن عوامل إنشاء المجتمع الرشيد المتماسك المعتز بمقوماته ومرجعياته الواقف عند الحدود المرعية والأوامر الشرعية، ومن شروط تحقيق الاستخلاف الحق في الأرض التي استعمر الله الإنسان فيها وجعلها بهجة للناظرين ونعمة للساعين وذلولا ممهدة للسائرين، ويسر له سبل الانتفاع بها.

سبب النزول :

ورد في كتب أسباب النزول وعند المفسرين روايات كثيرة مختلفة في سبب نزول الآيات الأولى من هذه السورة الكريمة الموسومة بسورة الحجرات[1]. ومن أراد الجمع بين الروايات يجد يسيرا ضمَّ بعضِها إلى بعض، والاكتفاءَ عن بعضها ببعض. ومجمل الروايات التي رويت في ذلك تؤول إلى ما يأتي:

1) أنها نزلت في ناس كانوا يقولون: لو أنزل في كذا لوضع كذا وكذا!

2) أنها نزلت في ناس من المسلمين قدّموا فذبحوا أضحية العيد قبل صلاة رسول الله ﷺ يوم النحر، فأمرهم نبي الله ﷺ أن يعيدوا ذبحا آخر.

(1) راجع إن شئت أسباب النزول للواحدي، ولباب النقول للسيوطي، وتفاسير الطبري والبغوي والقرطبي وابن كثير والشوكاني، وانظر أيضا زاد المسير لابن الجوزي، والدر المنثور للسيوطي وتسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول لخالد العك.

3) أنها نزلت في رجل اسمه ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه وقر، وكان جهوري الصوت، وكان إذا تكلم رفع صوته، وربما يكلم النبي ﷺ فيتأذى بصوته.

4) أنها نزلت في صوم يوم الشك.

5) أن النبي ﷺ أنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسَلِموا وانكفأوا إلى المدينة فلقوا رجلين من بني سُليم فسألوهما عن نسبهما فقالا: من بني عامر، لأنهم أعز من بني سليم، فقتلوهما، فجاء نفر من بني سليم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن بيننا وبينك عهدا، وقد قتل منا رجلان. فوداهما النبي ﷺ بمائة بعير، ونزلت عليه هذه الآية الأولى في قتلهم الرجلين.

6) أنها نزلت بسبب حوار وقع بين الصديق أبي بكر وبين الفاروق عمر رضي الله عنهما لما قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: أمِّر الأقرع ابن حابس، فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما.

7) أنها نزلت لما أراد النبي ﷺ أن يمضي إلى خيبر فاستخلف على المدينة رجلا، فأشار عليه عمر برجل آخر.

وقد عقب الإمام الرازي على روايات أسباب النزول بعد ذكر بعضها بقوله: «**والأصح أنه إرشاد عام يشمل الكل، ومنع مطلق يدخل فيه كل إثبات وتقدُّم واستبدادٍ بالأمر وإقدام على فعلٍ غير ضروري من غير مشاورة**»[2]؛ وقال الإمام القرطبي بعد أن نقل بعض الروايات إنه «**ذكرها**

(2) مفاتيح الغيب 110/28/14.

الماوردي، والقاضي أبو بكر ابن العربي وقال: **كلها صحيحة تدخل تحت العموم»، ثم عقب الإمام القرطبي قائلا: «ولعلها نزلت دون سبب»**[3].

القراء ات:

في هذه الآية قراءتان فقط:

الأولى قرأ بها الضحاك[4]، ويعقوب الحضرمي[5]: (لا تَقَدَّموا)، على اللزوم؛ وأصله: لا تتقدموا، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا كما هو مألوف في لغة العرب.

والثانية قرأ بها ورش[6] والباقون: (لا تُقَدِّموا)، على التعدية.

من أجل التبيُّن والبيان:

استهلت السورة بنداء كريم من رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وتكرر هذا النداء فيها خمس مرات خلال آياتها الـ(18)، وهو نداء فيه تنبيه واستدعاء للعقول والقلوب والضمائر، معزز بوصف الإيمان الذي هو وصف عزيز غال محبب إلى القلوب الصافية والنفوس المطمئنة، ومطمح يبتغيه كل إنسان سوي مهتم بمصيره؛ ورد في القرآن الكريم كثيرا وبخاصة في السور المدنية بعد أن تكوَّن المجتمع المسلم المؤمن المستحق لهذا النداء الرباني المقر للمخاطبين، الذين يجمعهم الإيمان والتصديق،

(3) الجامع لأحكام القرآن 300/16/8.

(4) هو الضحاك ابن مزاحم الهلالي (ت 105هـ) إمام تابعي من قراء الكوفة، فتح بها كُتّابا للتعليم المجاني.

(5) هو أبو محمد يعقوب بن إسحق الحضرمي (117 ـ 205هـ) إمام أهل البصرة وشيخ قرائها، وهو من الثلاثة المتمين للعشرة.

(6) هو عثمان بن سعيد المصري (110 ـ 197هـ) شيخ القراء المحققين.

بهذه الصفة الشارحة لصدورهم، الباعثة على الاعتزاز والاستجابة والمسارعة إلى تلبية النداء الآتي من الرحمن الرحيم.

والنداء عند اللغويين والبلاغيين ببعض حروفه يقوم فيه الحرف مقام فعل (أدعو)، وقد يكون بمعناه الحقيقي الذي هو طلب الإقبال، وقد ينصرف إلى معنى آخر يفيده السياق، كما هو الحال هنا فالإقبال المطلوب من المخاطبين بالآية ليس إقبالا ماديا بالأجسام تتجه إلى ناحية معينة هي جهة المتكلم المنادي، لكن الإقبال المطلوب في القرآن الكريم بمثل هذا النداء هو الإقبال بالقلب والضمير والفكر والأمل، وهذا الإقبال يكون في الأحوال العادية مستتبعا رغبة جامحة في الإقبال على مضمون الخطاب وقصده، واستعداداً منشرحاً منساباً للاستجابة لكل مضامينه، فكيف وهو موجه من الخالق المنعم الآمر العزيز الحكيم، ومتجه إلى المخلوق المفتقر المأمور الضعيف الخاضع.

وقد جاءت (أي)[7] للتوصل بها إلى نداء (الذين)، و(الذين) اسم موصول منادى مبني في محل نصب مفعول فعل النداء المقدر (أدعو)، و(آمنوا) جملة فعلية لا محل لها من الإعراب صلة الموصول. والفعل (تقدموا) في قوله تعالى: (لا تقدموا) مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، وهي ترفع بثبوت النون وتنصب وتجزم بحذفها.

ورأى المفسرون[8] في هذه الجملة من الآية الكريمة عدة أوجه:

---

(7) (أي) اسم يأتي على خمسة أوجه: شرطا، واستفهاما، وموصولا، ودالا على الكمال، ووصلا إلى نداء ما فيه (أل): المغني1/81 – 82.

(8) انظر مثلا: الرازي 111/28/14؛ والأمين الشنقيطي406/7.

الأول وهو أصحها وأظهرها عند بعضهم[9] أنه مضارعُ (قَدِم) اللازم، بمعنى: (تَقَدَّمَ)، ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب، فيكون المعنى حينئذ: النهي عن فعل التقديم.

والثاني أنه مضارع (قَدَّم) المتعدي، والمفعول محذوف لإرادة التعميم، أي لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدي الله ورسوله، بل أمسكوا عن ذلك حتى تصدروا فيه عن أمر الله ورسوله.

والثالث أنه مضارع (قَدَّم) المتعدي ولكنه أجري مجرى اللازم، وقطع النظر عن وقوعه على مفعوله، لأن المراد هو أصل الفعل دون وقوعه على مفعوله، والمعنى كما حكى الإمام البخاري وغيره من أئمة الفهم والتفسير والتأويل: لا تفتاتوا على الله ورسوله ﷺ حتى يقضي الله على لسان رسوله ﷺ، أو لا تقطعوا أمرا دون الله ورسوله ﷺ وقبل أن يحكما به، ولا تقدموا أمام الله ورسوله ﷺ فتقولوا في شيء بغير علم ولا إذن من الله ورسوله ﷺ، بل أمسكوا عن ذلك حتى تصدروا فيه عن أمر الله ورسوله ﷺ[10].

والرابع أنه مضارع (تَقدَّم) اللازم أي لا تتقدموا، وعلى هذا فهو مجاز ليس المراد هو نفس التقديم بل المراد لا تجعلوا لأنفسكم تقدما عند النبي ﷺ؛ يقال فلان تقدم من بين الناس إذا ارتفع أمره وعلا شأنه، لأن من ارتفع يكون متقدما في الدخول في الأمور العظام، وفي الذكر عند ذكر الكرام؛ وسواء جعلناه متعديا أو لازما فالمعنى واحد، والتقدير: لا تقدموا أنفسكم بأن تجعلوا لكم تقدما

(9) الأمين الشنقيطي: مرجع متقدم.

(10) تفسير الطبري 13/26/116 ـ 117.

ورأيا عند النبي ﷺ وفي حضرته، وليس المراد لا تقدموا أمرا وفعلا، فحينئذ تتحد القراءتان في المعنى: من قرأ (لا تَقدَّموا) بفتح التاء والدال، ومن قرأ (لا تُقدِّموا) بضم التاء وكسر الدال.

ومجمل الأمر أن في الآية نهيا عن القول بخلاف الكتاب والسنة، أو عن التقديم بين يدي كلام الله وكلام رسوله سيدنا محمد ﷺ. وهو أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به وعدم مخالفته.

وهناك سؤالان يقتضيهما سياق النهي عن الافتيات والاعتراض تقديما بين يدي الله ورسوله ﷺ:

الأول: هل تعتبر النصيحة والمبادرة بالرأي تقديما بين يدي الله ورسوله ﷺ ؟

والثاني: هل يعتبر القياس افتياتا على الله ورسوله ﷺ وتقديما بين يدي الله ورسوله ﷺ ؟

فأما القياس فإنه قطعا لا يعتبر افتياتا ولا تقديما بين يدي الله ورسوله ﷺ، لأن الأدلة النقلية والعقلية، من الكتاب والسنة ومباحث الفقه وأصوله قواعد وأصولا ومنهجا، قامت على حجية القياس ووجوب العمل به في فروع الشرع كما ذهب إليه بعض الأصوليين، وعلى جوازه كما رجحه البعض الآخر[11].

فمن أدلة القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في

(11) للتوسع في موضوع القياس يرجع إلى: الإحكام للآمدي، والمستصفى للغزالي، وأصول الفقه الاسلامي لوهبة الزحيلي.

شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾[12]، وقوله سبحانه: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾[13]؛ ففي قوله تعالى ﴿ردوه إلى الله والرسول﴾ أمر باستخدام القياس لإلحاق الأمور المستجدة بما يماثلها أو يناسبها مما ورد له حكم في الكتاب أو السنة.

ومن أدلة السنة ما ثبت في الصحاح من أن رسول الله ﷺ في كثير من الوقائع التي كانت تعرض عليه ولم ينزل عليه فيها وحي، استدل على حكمها بطريق القياس، ولنا فيه ﷺ أسوة حسنة:

فقد سأل عمر رسول الله ﷺ عن قُبلة الصائم من غير إنزال، فقال له رسول الله ﷺ: **«أرأيت لو مضمضت من الماء ـ وفي رواية: من إناء ـ وأنت صائم؟ قلت: لا بأس به. قال: فمه!»**[14]، أي اكتف بذلك.

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال له: **«كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله. قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد برأيي لا آلو. فضرب رسول الله ﷺ على صدر معاذ وقال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله»**[15].

---

(12) سورورة آل عمران 59/3.

(13) سورة الحشر 2/59.

(14) رواه أبو داود في كتاب الصيام، باب القبلة للصائم: عون المعبود 11/7 - 12 ح 2368.

(15) حديث مرسل، قال البخاري في تاريخه الكبير: **«مرسل إلا أن عدم اتصال إسناده لا يمنع صحته، لأنه مروي عن أصحاب معاذ، وهم كلهم ثقات»**، وقال الدارقطني: **«والمرسل أصح»**، وقال الشوكاني في إرشاد الفحول: **«وهو حديث مشهور له طرق متعددة ينتهض مجموعها للحجة»**. وقد روى الحديث أبو داود، والترمذي، وأحمد، وغيرهم.

وأما النصيحة والمبادرة بالرأي هل يعتبران تقديما بين يدي الله ورسوله ﷺ فإن في السيرة مواقف ثبت فيها أن النبي ﷺ استنكر على الصحابة اعتراض أمره، وفيها مواقف أخرى ثبت فيها إجازته ﷺ تقديم الرأي أمامه، وقبول الرأي الآخر والعمل به.

فقد اعترضت عائشة رضي الله عنها أمرا أمر به النبي ﷺ فاستنكر ﷺ ذلك تربية للناس على عدم الاعتراض، وتعويدا لهم على الانقياد لأمر الله ورسوله ﷺ، وذلك لما أصدر ﷺ في مرضه الأمر لأبي بكر أن يصلي بالناس، فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف[16] وإنه متى يَقمْ مقامك لا يُسمِع الناس من البكاء، فَمُرْ عمر فليصل بالناس؛ فقال: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف**[17]**، مروا أبا بكر فليصل بالناس**»[18].

غير أن الثابت في السيرة النبوية أنه ﷺ كان يشاور أصحابه في بعض سياسة الأمة، وكان يعمل بالشورى ما لم يكن في الأمر وحي، وذلك تنفيذاً لأمر الله عز وجل الذي أمر بالشورى في موضع، وأقره في موضعين من الوحي الكريم إذ يقول جل من قائل: ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾[19]، ويقول سبحانه: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾[20]، ويقول جل شأنه: ﴿**عن تراض منهما وتشاور**﴾[21].

---

(16) رقيق سريع البكاء والحزن.

(17) أي مثلهن في الفتنة بالرد عن الجائز إلى غير الجائز.

(18) رواه البخاري ومسلم.

(19) سورة آل عمران 159/3.

(20) سورة الشورى 35/42.

(21) سورة البقرة 231/2.

ومن أشهر المواقف التي أشار فيها الصحابة على رسول الله ﷺ بالرأي وقبله واعتمده ولم يعتبره افتياتا ولا تقديما بين يدي الله ورسوله ﷺ، موقفه ﷺ في غزوة بدر لما أنزل ﷺ المسلمين قبل الماء، فجاء أحد أفراد الجيش وهو الحباب بن المنذر وقال للنبي ﷺ: «**يارسول الله، أهو منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال الحباب: يارسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، انهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم ـ يقصد قريشا ـ فننزله ونغور ما وراءه، ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي**». ونهض بالجيش حتى أتى المكان الذي أشار به الصحابي، وعمل ﷺ بمشورته[22].

أما قوله تعالى: ﴿**بين يدي الله ورسوله**﴾ أي بحضرتهما، فلأن ما بحضرة إنسان هو بين يديه وهو ناظر إليه وهو نصب عينيه. يقال في اللغة: وقف فلان بين يدي غيره: أي مَثُلَ أمامه أو بحضرته؛ وحين يقف المخلوق بين يدي الخالق جل جلاله فإنه في الحضرة الربانية، اعتقادا لا حسا، بجلالها وعظمتها وهيبتها، وهذا مصداق العقيدة القوية الصافية الصادقة التي عبر عنها الرسول الأمين ﷺ في قوله:

«**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[23].

و(بين) في الآية ظرف مكان مبني على الفتح، وهو مضاف، و(يدي)

---

(22) ابن هشام: السيرة النبوية 272/2.

(23) من حديث جبريل الطويل، أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وانظر نصه كاملا في ص 177 من هذا الكتاب.

مضاف إليه ما قبله مجرور، وهو أيضا مضاف واسم الجلالة مجرور بالإضافة، و (رسوله) معطوف عليه بالواو تابع له في جره، وهو مضاف والهاء ضمير الغيبة مبني على الكسر في محل جر مضاف إليه ما قبله.

وفي هذا المقطع من الآية الكريمة فوائد:

(1) فيه دلالة على علو شأن الخالق العظيم سبحانه الذي نقف بين يديه عند عبادته أو تلاوة كلامه أو عند الحشر والحساب والثواب، وعلى قدرته تعالى؛ مما يفيد وجوب الاحتراز من التقديم على ما شرعه، وتقديم النفس أو الانشغال عنه بأي شيء.

(2) ذكر رسول الله ﷺ معطوفاً على الاسم الأعظم إشارة إلى وجوب احترامه ﷺ والانقياد لأوامره، فقوله تعالى: ﴿**بين يدي الله ورسوله**﴾ أي أنتم بحضرةٍ من الله تعالى الحي الدائم، وهو ناظر إليكم، والرسول ﷺ بينكم يبلغ الوحي ويبين لكم الدين في حياته، وسنته قائمة فيكم بعد موته، فيجب تقدير مواقفكم أمام كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والإحساس بعظمة الخالق الجليل، واحترام الرسول الكريم ﷺ.

(3) أن هذه العبارة كما تقرر معنى النهي المتقدم في قوله تعالى: ﴿**لا تقدموا**﴾ تقرر معنى الأمر الآتي لاحقاً في قوله سبحانه: ﴿**واتقوا الله**﴾ لأن من يكون بين يدي الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يفعل به ما يشاء، يكون جديرا بأن يتقيه.

﴿**واتقوا الله**﴾: فعل أمر على وجه الاستعلاء يوجب على المخاطبين لزوم تقوى الله والحرص على المداومة عليها، وواو

الجماعة ضمير متصل في محل رفع فاعل، والواو في صدر الجملة عاطفة، قال الفخر الرازي: «**يحتمل أن يكون عطفا يوجب مغايرة مثل المغايرة في قولنا: لا تَنَمْ واشتَغِلْ، أي فائدة ذلك النهي هو ما في هذا الأمر، وليس المطلوب به ترك النوم كيف كان، بل المطلوب بذلك الاشتغال، فكذلك لا تقدموا أنفسكم ولا تتقدموا على وجه التقوى. ويحتمل أن يكون بينهما مغايرة أتم من ذلك، وهي التي في قول القائل: احترم زيدا واخدمه، أي ائت بأتم الاحترام؛ فكذلك ههنا معناه لا تتقدموا عنده وإذا تركتم التقدم فلا تتكلوا على ذلك فلا تنتفعوا، بل مع أنكم قائمون بذلك محترمون له اتقوا الله واخشوه وإلا لم تكونوا أتيتم بواجب الاحترام**»[24].

والتقوى في اللغة اسم من فعل (وقى) بمعنى حفظ، وهي اتخاذ ما يستر ويدفع الأذى ويحمي من المكاره؛ وهي أيضا قلة الكلام، وعليه ورد في الأثر: «**التقي مُلجَم، والمتقي فوق المومن والطائع**»[25]؛ وتقوى الله أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه من غضب الله وعذابه مانعا واقيا، فيلزم الطاعات ويفعل الواجبات ويجتنب المعاصي والمحرمات ويحرص على اتباع رسوله ﷺ وعدم مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ، وينزع عن نفسه حب الشهوات ويصفيها من دنس سوء الأخلاق ويتخلق بمكارمها حتى ينسلخ من عادات البشرية، كما يقول أهل الإشارة[26]. وعلى المتقي أن لا

(24) التفسير الكبير 111/28/14.

(25) الجامع لأحكام القرآن 161/1/1، ولم أجد الأثر فيما بين يدي من كتب الحديث وفهارسه وموسوعاته.

(26) البحر المديد 156/7.

يزكي نفسه، وعلى العبد أن يحذر الذهول عن التقوى والغفلة عنها، لأن الأمر بالتقوى وارد في الكتاب والسنة بوفرة على وجه الإيجاب والنصح والترشيد والإطماع في عاقبة التقوى والمتقين؛ وهو وصية الله عز وجل للأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين وكافة الخلق أجمعين، رحمة ورأفة من رب العالمين؛ قال وهو سبحانه ولي المتقين: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾[27]؛ وهو أيضا وصية النبيين والصديقين، ومطمح العباد والصالحين، وصى به جل شأنه سيد الرسل أجمعين وإمام الهداة المتقين عليه من الرحمن الرحيم أفضل الصلاة وأزكى التسليم فقال جل من قائل: ﴿يا أيها النبيء اتق الله﴾[28]؛ ووصى من رحمته أفراد هذه الأمة المحمدية بما وصى به الأولين والآخرين فقال وهو أصدق القائلين: ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم﴾[29]، وقال سبحانه: ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾[30]، وقال عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا﴾[31]، وقال: ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله﴾[32]، وقال: ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾[33]؛ فتلك أوامر ربانية، في آيات بينات، بها عبر وعظات،

(27) سورة النساء 130/4.

(28) سورة الأحزاب 1/33.

(29) سورة الحج 1/22.

(30) سورة المائدة 37/5.

(31) سورة الأحزاب 70/33.

(32) سورة الحديد 27/57.

(33) سورة لقمان31/32..

تشمل كل جوانب الحياة، لتنساب صفة التقوى من الخواطر إلى السلوكات، وتتجلى وتتمثل في جميع الحالات، ثم تنحو حياة المؤمن بكل مواقفها وفي جميع أحوالها نحواً تقياً نقياً طاهراً مستقيماً على الخير والهدى والبر والعمل الصالح والسلوك الراشد.

والتقوى فوق الإيمان والطاعة، لأن المتقي تصير أقواله وأفعاله ممحضة لله تعالى. يقول أبو يزيد البسطامي رحمه الله: «**المتقي من إذا قال قالَ لله، ومن إذا عمل عملَ لله**»[34].

ولقد لُخِّصَت شروطُ التقوى ومنهجها في كلمتين:

الأولى: العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل، والرضى أو القناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

والثانية: أن يعبد الله فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر[35].

و﴿سميع عليم﴾ صفتان من صفات الله عز وجل، من الصفات المعنوية التي هي واجبة في حقه تعالى، وردتا هنا ـ والله أعلم بقصده ـ لتأكيد ما تقدم من الدعوة إلى التقوى والنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله، وللتنبيه في الآن نفسه والتحذير من مراقبة

(34) الجامع لأحكام القرآن161/1/1.

(35) للتوسع في موضوع التقوى مفاهيم وتعاريف وبسطاً يرجع إلى المادة في تفاسير الآيات المشتملة عليها، وبخاصة تفسيري القرطبي وابن كثير؛ وإلى مثل: ابن القيم: مدارج السالكين، والإمام الغزالي: إحياء علوم الدين، وأحمد طاحون: مرشد الدعاة إلى الله، وأحمد فائز: طريق الدعوة في ظلال القرآن، وغيرها.

الخالق المعبود للمخلوق العابد، ومما ينتظر المخلوق من الحساب والجزاء، لأن الذين يتحملون صفة الإيمان فيُدعون ويخاطَبون بـ(يا أيها الذين آمنوا)، لا بد أن يدركوا أن الله العلي العظيم الذي آمنوا به وصدقوا رسوله المصطفى الكريم ﷺ واستجابوا لأمره يسمع قولهم خيره وشره، ويعلم فعلهم نافعه وضاره، ويطلع على ما في قلوبهم من التقوى والخيانة؛ فلا ينبغي أن تختلف أقولهم وأفعالهم ومكنونات قلوبهم، ولابد أن يكون هناك انسجام بين قولهم: آمنا وسمعنا وأطعنا، وبين فعلهم الظاهر، وهو عدم التقدم بين يدي الله ورسوله، وما ينبغي أن يُكنوه في قلوبهم وهو التقوى.

من أجل التذوق الفني:

تصدير الخطاب بالنداء تنبيه للمخاطبين إلى أن الموضوع هام خطير يستدعي اعتناء المخاطبين بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته. والنداء الموجه من الخالق عز وجل، المخصّص للذين يتصفون بالإيمان، فيه دلالات عميقة وإيحاءات بهيجة تشرح نفوس المخاطبين وتحفزهم على حسن تلقي الخطاب الذي هم مدعوون إليه.

وهدف النداء باعتبار مصدره وباعتبار المخصوصين به إثارة انتباههم إلى أمور ذات أهمية بالغة لها صلة بالعقيدة والسلوك، وبالأخلاق وتهذيب النفوس، وبتربية الفرد ليكون في مستوى المسؤولية والأمانة، وليكون حريا بالصفة التي خص بها، مع أن النداء بـ(يا) التي ينادى بها البعيد، فيه كناية عن رفعة منزلة المخاطَب

المتلقي عند المخاطِب الباث، فوصفهم بالإيمان لتنشيطهم، والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به.

وبداية الآية بالنهي عن التقديم: (لا تقدموا) فيه ضرب من المجاز بالتمثيل، حيث شبه من يقدم رأيه على قول الله عز وجل أو حكمه، أو على قول رسوله ﷺ أو حكمه، أو يعترض على شيء من ذلك أو يخالفه، بمن يتقدم أمام نظر مَن حقّه الطاعة والاحترام فيتعدى المكانة التي له ويتجاوز الحد المفروض. وفيه فائدة جليلة هي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهي عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة[36].

و﴿لا تقدموا﴾ أسلوب نهي، من الإنشاء الطلبي، الذي يستدعي مطلوبا غير حاصل في وقت الطلب، وهو وارد في الآية ولا شك على جهة الاستعلاء، فهو نهي حقيقي لا ينصرف إلى أي معنى مجازي؛ وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوة الاختصاص؛ ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى، سلك به هذا المسلك، ليعلم الناس ضرورة الاقتداء برسول الله ﷺ، وخطورة الافتيات عليه ومعارضة سنته.

مستخلصات هادية:

هذه الآية الكريمة أمر رباني موجه للذين آمنوا، يحمل أحكاما من أهمها:

(36) الجامع لأحكام القرآن 300/16/8.

1 ـ النهي الصريح عن التقديم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في ذلك:

ـ حرمة تشريع ما لم يأذن به الله ورسوله

ـ حرمة تحريم ما لم يحرمه الله ورسوله

ـ حرمة تحليل ما لم يحله الله ورسوله

لأنه لا دين إلا ما شرعه الله، ولا حرام إلا ما حرمه الله، ولا حلال إلا ما أحله الله.

2 ـ الأمر بحسن التأدب مع الله عز وجل

3 ـ الأمر بحسن التأدب مع رسول الله ﷺ.

4 ـ الأمر بتقوى الله عز وجل، بامتثال أمره واجتناب نهيه

5 ـ إثارة الانتباه عن طريق الإخبار الدال على التحذير والوعيد، إلى أن الله سميع لأقوال العباد إذا قدموا بين يدي الله ورسوله ﷺ كما هو سميع لغير ذلك، عليم بأعمالهم ومعاملاتهم، مطلع على خفايا نفوسهم ومكنونات ضمائرهم فمُجازٍ عباده بحسب ما قدموا لأنفسهم فكرا واعتقادا، وقولا وعملا، ومنهجًا وسلوكا.

وبما أن الوحي قد انقطع، والرسول ﷺ قد قُبض فعلى المسلم اليوم وفي كل عصر وحين أن يتأدب مع الله ومع رسوله، باحترام الكتاب والسنة والعمل بهما ونشر مضامينهما والدفاع عنهما، وإذا ذَكر النبي ﷺ أو ذُكر له صلى عليه واحترز من الاستخفاف واللامبالاة، خوفا من أن يحبط عمله بدون أن يشعر. ويزداد الأمر

حتمية وتأكيدا إذا دخل المسلم المسجد الحرام بمكة المكرمة أو المسجد النبوي بالمدينة المنورة فينبغي أن يكون على هيئة الاحترام والسكينة والوقار والخشوع والهيبة والإجلال.

في محراب الآية:

القارئ لآيات الله البينات، المقتنع بالإيمان بالله وبرسوله، إن شاء أن يحسن القراءة بحقها، فليعلم أن النداء الموجه من رب العزة سبحانه لعباده يهز المشاعر هزا، ويلهب في الضمائر شعلة التطلع إلى ما ينتظر من الخطاب الرباني، ويهيئ القلوب للمبادرة إلى الاستجابة بانقياد وتسليم وابتهاج، وبدون تردد ولا ارتياب ولا حرج؛ فكيف إذا كان النداء بصفة الإيمان، التي هي أغلى مبتغى لدى الإنسان، حيث إن الوصف بها من رب العالمين لأحد من المخلوقين، يعتبر مفخرة وبشراً، يستتبع الاجتهاد في استحقاق ذاك الوصف الجليل، فيبعث على أن تتحقق الصفة للموصوف، بأن ينعقد القلب على التصديق المطلق، وينطلق اللسان بالكلام المحقق، وتجري الجوارح بالفعل المدقق، ويفعم السلوك بالرشد المنضبط بالشرع وما وثق.

فإذا تم الاستعداد لاستحقاق النداء والوصف، وكانت القراءة بالجوارح والقلب والحرف، اقتضى ذلك الوقوف عند الأمر والنهي، وعدم الافتيات على الشرع المحكم بالنص، واجتناب التقديم بين يدي المشرع الحكيم، والامتناع عن تحريم ما أحل القرآن العظيم أو سنة النبي الكريم ﷺ، وعن تحليل ما حرم بالنص في الأصلين بلا تأويل ولا توهيم.

ومتى استحكم الأمر ورسخ في الضمير، تدرج المتلقي في مدارج القرب واليقين، وتسلق سلم الترقي إلى رتب المتقين، واستجاب لأمر الله رب العالمين، بالتزام ما صرح بأنه وصيته سبحانه للسابقين على مر القرون والسنين.

ومن كان هذا حاله في نفسه ومع ربه ونحو معاشريه وتجاه الكون والكائنات من حواليه، فإنه لا ريب مستيقن أن ربه يسمع ما يقول ويعلم ما يعمل. وسَمْعُ الحق السميعِ سبحانه رباني كامل، لا يشخص بالمفاهيم البشرية، وإنما يعتقد كَماله ككمال الألوهية؛ وعلم العليم جل علاه محيط بالأشياء والأفعال والكائنات: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾[37]، ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[38]، ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾[39]، أما علم المخلوقات فمحدود محصور، ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[40].

ثم إن لعلمه سبحانه وتعالى أثره، ولإخباره العباد بأنه ﴿سميع عليم﴾ نتائج مترتبة عن السمع والعلم، إنه الحساب العدل والميزان القسط، ثم الجزاء ثوابا أو عقابا، والمصير المترتب عن الحساب والجزاء نيلا واستحقاقا.

---

(37) سورة سبأ 3/34

(38) سورة غافر 19/40

(39) سورة البقرة 254/2 أول الآية.

(40) تتمة الآية السابقة من سورة البقرة 254/2

2

التأدب مع رسول الله ﷺ صفته وفضيلته وأبعاده

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(3) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(5).

مـدخـل:

قد تسول للبعض أنفسهم أن يتطاولوا على المقدسات أو يحاولوا النيل منها بالرسم التشويهي أو بالكلمة النابية أو بالقدح السافر، لكن تبقى المقدسات مهيبة مصونة لا ينال منها معتدٍ ولا ينقص من قيمتها متطاول، وتبقى محاولات أولئك البائسين خاسئة حسيرة مرتدة إليهم. فكم حاول المستعربون الذين عرفوا في التاريخ بالمستشرقين، وعرفوا بدراساتهم (العلمية) المتنوعة ومناهجهم (الموضوعية) ومحاولاتهم

الماكرة المتلونة عبر العصور والحقب، وفي مجالات الفكر والأدب والتاريخ واللغة وغيرها أن ينالوا من العقيدة الإسلامية أو الشريعة أو القرآن الكريم ومنهاجه ولغته البليغة أو الرسول ﷺ وسنته وسيرته التي ما كتبت سيرة أخرى في تاريخ البشرية بمثل دقتها وصرامتها وجديتها وتفاصيلها.

فهل أفلح منهم أحد في تغيير شيء من القرآن أسلوبا أو مضمونا ؟

أم هل استطاع أحد أن يغير صورة الرسول الأكرم محمد ﷺ كما تحدث عنها القرآن الكريم وكما جسدها هو نفسه ﷺ في سلوكه ومعاملاته وجهوده الربانية المتواصلة لتبليغ الدعوة ونشر الحق والخير ؟

وهل أثروا تأثيرا ما في إيمان المومنين أو في عقيدة المسلمين أو في شخصية الرسول الأمين ﷺ ؟

كلا ! بل إنما يزيد ذلك دين الله انتشارا، ونبي الله ﷺ تقديرا، والمومنين قوة وثباتا. وليس المهم ما فعل أولئك المغرضون وما فعله قبلهم المستكبرون وما قد يفعله بعدهم الماكرون؛ بل المهم ما ذا يفعل المسلم المومن الغيور حينما يتطاول المتطاولون على مقدساتهم ؟ وما الموقف الواجب اتخاذه إزاء تلك المحاولات المقيتة ؟ وهل في الكتاب والسنة ما يدلنا على كيفية مواجهة مثل هؤلاء الخراصين كانوا من الأباعد أو من الأقارب ؟

في عصر الرسالة، والرسول الأمين محمد ﷺ ما يزال منهمكا في الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الحق والخير، يفتح الله عز وجل مكة للإسلام، ويدخل الناس في دين الله أفواجا، فتأتي وفود العرب من كل

مكان، وفيهم الأعراب الجفاة، ويقدم بعض تلك الوفود على رسول الله ﷺ فينادونه من وراء حجرات أزواج النبي ﷺ المطلة على المسجد النبوي الشريف بجفوة وإزعاج وسوء أدب، فتنزل آيات الله البيّنات تدعو إلى التأدب مع النبي ﷺ في الحديث والخطاب، وفي الحضور والغياب، وتحث على احترامه وتوقيره توقيرا ينعكس على نبرات الأصوات وحديث المجالس؛ وتتخذ هذه الدعوة الربانية مثالا لمنهج التعامل مع كل مناوئ، ووازعا على حسن تلقي سنة الحبيب محمد ﷺ وحسن التعامل مع سيرته.

أسباب النزول :

في أسباب نزول هذه الآيات الأربع روايات كثيرة نذكر منها الأشهر الأصح والأكثر وروداً عند أصحاب السيرة والتفسير والحديث:

فقد روى الإمام البخاري أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وخلاصته أن الصحابيين الجليلين رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، وأشار الآخر برجل آخر، ذُكر في بعض الروايات أنه القعقاع بن معبد، فارتفعت أصواتهما في مجلس رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم..**﴾ الآية. تقول بعض الروايات: فما كان عمر يُسمِع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه؛ وقد استصوب ابن عباس رضي الله عنهما هذه الرواية[1].

(1) كتاب التفسير من الجامع الصحيح للإمام البخاري، تفسير سورة الحجرات، باب «لا ترفعوا أصواتكم» ح 4846؛ وباب «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات» ح 4847.

وروي أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنيه وَقْر، وكان جهوري الصوت، وكان إذا تكلم رفع صوته، وربما كان يكلم النبي ﷺ فيتأذى من صوته، فجلس يبكي في الطريق خشية أن يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فدعاه رسول الله ﷺ وقال له: «**أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة ؟ قال: رضيت ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ**» فأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿**إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ..**﴾ الآية[2].

وروي أنه لما قدم على النبي ﷺ وفد تميم وكانوا سبعين وفيهم عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وفدوا على النبي ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد، فنادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته وقالوا: «**اخرج إلينا يا محمد، فإن مدحنا زين، وذمنا شين**». فاستيقظ ﷺ وخرج وهو يقول: «**ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين**»، فقالا: نحن قوم من بني تميم، جئنا بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك. فقال ﷺ: «**ما بالشعر بُعثت ولا بالفخار أُمرت**»، ثم أمر ﷺ خطيبهم فتكلم، ثم قال لثابت بن قيس بن شماس، وكان خطيب النبي ﷺ: «قم»؛ فقام فخطب فأفحم خطيبهم، ثم تناشد الشعراء بين يدي النبي ﷺ أشعارا؛ ثم قال الأقرع: «**تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قيلا، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر**»؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات**﴾ الآية[3].

---

(2) أخرجه الطبري 118/16.

(3) السيرة النبوية لابن هشام 206/4 وما بعدها.

القراء ات:

قرأ نافع: «فوق صوت النبيء»، وقرأ الباقون: «فوق صوت النبيِّ»؛

وقرأ أبو جعفر: «من وراء الحُجَرات» بفتح الحاء، وقرأ الباقون: «من وراء الحُجُرات» بضمها

وفي قراءة ابن مسعود: «لا ترفعوا بأصواتكم»[4].

من أجل التبيُّن والبيان:

تتصدر هذه الآيات بنداء الإيمان: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ هذا الوصف الجميل الحافز إلى التلبية والتسليم، وهذا النداء الحبيب الذي يخجل من يدعى به من الله ربه الكريم أن لا يجيب، والذي ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب؛ وإعادة هذا النداء ههنا مع قرب العهد، للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الخطابين باستدعاء الاعتناء بشأن الرسول الأكرم ﷺ.

و(ترفعوا)، و(تجهروا) في قوله تعالى: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيء ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾: مضارعان مجزومان بـ(لا) الناهية، وعلامة الجزم فيهما حذف النون لأنهما من الأفعال الخمسة، وواو الجماعة في كل منهما ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، وشبه جملة من

(4) الكشاف 555/3.

الظرف والمظروف (فوق صوت النبيء) في محل نصب مفعول فيه؛ والصوت: جرْس الكلام، أو الكلام المسموع، والهمس: الكلام الخفي، يقال: فلان لا يسمع له جرْس ولا همس، وفي الحديث «**فتسمعون صوت جرْس طـير الجنة**»[5]، وأما الجرَس فما يعلق فوق الأبواب أو في أعناق الدواب. وصوّت إنسان: أحدث صوتا، وصوت الناخبون في الانتخابات: أدلَوا بأصواتهم لاختيار المرشح الذي يريدونه.

وشبه الجملة من الجار والمجرور (له) متعلق بـ(تجهروا)، وشبه الجملة من الجار والمجرور (بالقول) له أيضا تعلق بالفعل (تجهروا) وهو في مقام مفعوله كأن قد قيل: لا تُظهِروا له القول، والكاف في قوله تعالى (كجهر بعضكم لبعض) حرف جر للتشبيه، والجار والمجرور شبه جملة متعلق بصفة لمفعول مطلق مقدر بقولنا: جهرا كجهر بعضكم لبعض. و(لبعض): جار ومجرور متعلق بالمصدر في قوله تعالى (كجهر).

و﴿أن تحبط أعمالكم﴾ جملة فعلية لا محل لها من الإعراب صلة الحرف المصدري (أن)، والمصدر المسبوك من (أن) والفعل في محل نصب نائب عن المفعول لأجله مقدر بمثل قولنا: لا تفعلوا ذلك لئلا تحبط أعمالكم، أو في محل جر مضاف إليه مضاف مقدر محذوف بتأويل: إنما ننهاكم عن ذلك كراهة حبوط أعمالكم أو خشية حبوطها، أي بطلانها، إذ معنى (تحبط): تبطل وينمحي أثرها،

---

(5) اللسان 35/6 مادة (جرس)، ولم أجد النص في أي مصدر من مصادر السنة. وفي اللسان بعد ذكر الحديث الشاهد: «قال الأصمعي: كنت في مجلس شعبة قال: فتسمعون جرْش طير الجنة، بالشين، فقلت: جرس، فنظر إلي وقال: خذوها عنه فإنه أعلم بهذا منا».

من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وربما هلكت، ومنه قوله: «**وإنّ مما يُنبِتُ الربيعُ لما يَقْتُلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ**»[6]..

والواو في ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ حالية، و(أنتم) مبتدأ، و(لا) نافية لا عمل لها، و(تشعرون) جملة فعلية في محل رفع خبر، والجملة من المبتدأ وخبره في محل نصب حال من ضمير المخاطبين قبلها، والمعنى حال كونكم لا تشعرون أن أعمالكم قد بطلت ولا تعلمون عواقب ذلك، أو خشية أن يغضب رسول الله ﷺ من ذلك فيغضب الله لغضبه، فيُحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، فإن سوء الأدب ربما يؤدي بصاحبه إلى الحبوط وهو لا يشعر؛ كما جاء في الصحيح: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماوات والأرض**»[7]. وخلاصة مضمون الآية: وقّروا النبي الذي دعاكم إلى الإيمان، ولا تجعلوا طريقة دعوته وندائه مثل طريقة ندائكم ودعوتكم لسائر الناس، واحذروا مخالفة ذلك، فإنه منزلق قد ينتهي بكم إلى حبوط أعمالكم، وأنتم غير شاعرين ولا عالمين.

وفعلا عملت هذه الآيات في نفوس الصحابة الكرام الذين كانوا يتلقفون الوحي بالاستجابة الفورية والتنفيذ الفعلي، وعمل ذلك النداء الحبيب وهذا التحذير المرهوب عمله العميق الشديد في نفوس الأجيال تلو الأجيال؛ وما قصة أبي بكر وعمر بعد نزول هذه الآيات،

(6) ذكره الزمخشري في الكشاف557/3، وذكره ابن منظور شاهدا في مادة (حبط: 270/7) موجزا ثم ذكره مطولا مسندا إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولم أجده في كتب السنة.
(7) البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان، ح 6178.

وانتهاء الأول ـ رضي الله عنه ـ إلى أن يقول لرسول الله ﷺ: «**والله لا أكلمك إلا كأخي السرار**» يعني كالهمس! وانتهاء عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى أن لا يُسمِع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه؛ إلا دليل قوي على أثر ذلك النداء في قلوب المؤمنين وفي سلوكهم، وعلى استجابتهم له. بل لقد بلغ انضباطهم بالتأدب مع النبي ﷺ وحرصهم عليه مبلغ تهديد غير المنضبطين به، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع، وهو أمير المؤمنين، رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فأتاهما وقال: أتدريان أين أنتما ؟ ثم سأل: من أين أنتما ؟ فأجابا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا[8]!، وذلك من شدة حرصه على أن يتأدب المؤمنون مع رسول الله ﷺ فلا يرفعون أصواتهم في حضرته ولو كان في رمسه![9].

و(الذين) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ اسم موصول في محل نصب اسم إن، وجملة (يغضون أصواتهم) فعلية لا محل لها من الإعراب صلة الموصول، و(أصواتَهم) مفعول نصب بالفتحة على الرغم من أن لفظه يشبه الملحق بجمع المؤنث السالم، مثل: اجتماعات، واقتراحات، لأن مفرده مذكر ثلاثي. و(عند) في قوله تعالى ﴿عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ظرف متعلق بالفعل (يغضون)؛ والمعنى: يخفضون أصواتهم في حضرة رسول الله ﷺ تأدبا معه وإجلالاً له؛ و﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ..﴾ جملة اسمية من المبتدأ وخبره

(8) ابن كثير13/142.
(9) عن التأدب مع رسول الله ﷺ انظر روضة التعريف بالحب الشريف لابن لخطيب، ومدارج السالكين لابن القيم، وهذا الحبيب لأبي بكر الجزائري، والسراج المنير لأحمد عبد الجواد، وكيف نتأدب مع رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار لعبد المنعم قنديل.

في محل رفع خبر (إن)؛ و﴿امتحن الله قلوبهم﴾ جملة فعلية لا محل لها من الإعراب صلة الموصول؛ و﴿للتقوى﴾ جار ومجرور فيه أربع احتمالات:

ـ إما أن يكون متعلقا بالفعل (امتحن)، والمعنى: مرَّنَ قلوبهم، أي أخلصها وصفاها وشرحها ووسعها ومحضها للتقوى وجعلها لها أهلا ومحلا، فهم صبر على التقوى، أقوياء على احتمال مشاقها؛

ـ وإما أن يكون متعلقا بفعل محذوف تقديره: عرف الله أن قلوبهم أهل للتقوى، أي جربها ومرنها عليها؛

ـ وإما أن يكون متعلقا بمبتدأ محذوف خبره بتقدير: هم صبر على التقوى، أو هم للتقوى كائنون لها ومختصون بها؛

ـ وإما أن تكون في محل نصب حالا، بتقدير: كائنين للتقوى ومختصين بها.

عن مجاهد قال: كُتِب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضي الله عنه: «**إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها** ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾»[10]، وإنما تقدم الخبر (لهم) على المبتدأ (مغفرة) وجوبا في ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ لأن المبتدأ نكرة والخبر شبه جملة، وفيها وعد رباني لمن يستجيب لأمر الله ورسوله، ويحترم التوجيهات والآداب اللازمة في التعامل مع الكتاب والسنة بأن ينالوا مغفرة ذنوبهم

(10) أحمد في المسند، كتاب الزهد؛ وقد سبق بيان مفصل للتقوى في الفصل السابق، ص 24 ـ 26 فليراجع.

وعظيم الثواب على انضباطهم والتزامهم واستقامتهم على أمر الله ورسوله؛ ويهدف الخطاب إلى تعليم المؤمنين كيف يعظمون النبي ﷺ ويحترمونه ويوقرونه؛ عسى كل مومن أن يتأدب في حضرة رسول الله ﷺ أو عند تدارس سنته أو قراءة سيرته. وتحت وقع أي نداء رباني رحيم وكل وعيد وتحذير وترهيب يرتعش قلب المومن ويرتجف، ويهتز ويخفق طموحا إلى الدخول في زمرة الذين يعدهم الله عز وجل بمغفرة ذنوبهم وتعظيم ما ادخر لهم من ثوابه: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم﴾.

أما أولئك الذين ينادون الرسول الكريم ﷺ بتلك الطريقة العنيفة المزعجة فهم كما وصفهم الحق سبحانه وتعالى ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ لأنهم لو كان لهم عقل مميز لما تجاسروا على هذه العظيمة من سوء الأدب، وكان أجدرَ بهم وخيراً لهم أن يصبروا وينتظروا رسول الله ﷺ حتى يخرج إليهم من دون أن يزعجوه بذلك النداء الفظ. و(إن الذين) جملة اسمية، (الذين) فيها اسم موصول في محل نصب اسم إن متضمن معنى (من) الشرطية، والجملة الفعلية (ينادونك) لا محل لها من الإعراب صلة الموصول، و(من وراء) شبه جملة من الجار والمجرور متعلق بالفعل (ينادونك)، و(الحجرات) جمع مؤنث سالم مجرور بالإضافة وعلامة جره الكسرة، و(أكثرهم لا يعقلون) جملة اسمية مركبة من المبتدا (أكثرهم)، وخبره: الجملة الفعلية (لا يعقلون)، وهي كلها في محل رفع خبر (إن).

و(من وراء الحجرات) أي من خارجها أو من خلفها أو من أمامها، فـ(الوراء): الجهة التي تواري عنك الشخص وتظلله من خلف أو من قدام، و(من) لابتداء الغاية، أي إن المناداة كانت منطلقة من خلف، أو من خارج غرفات بيته ﷺ وقت راحته؛ ومناداتهم من وراء الحجرات، إما لأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه ﷺ من ورائها، وإما لأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له ﷺ، وإما أنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالا لرسول الله ﷺ. وقيل إن الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع ابن حابس، وإنما أسند إلى جميعهم لأنهم رضوا بذلك وأَمروا به. و(الحجرات) جمع حجرة: فُعْلَة بمعنى مفعولة كالقُبضة، وهي الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط حولها، ولهذا سميت الغرفة حجرة، أو لأنها تحجر الإنسان النائم، ومن باب اتساع العربية أنك تجد للكلمة معاني أخر يحددها السياق ونظم الكلام وظروف الخطاب؛ والمراد بالحجرات هنا حجرات النبي ﷺ وقد كان لكل امرأة من نسائه الطاهرات حجرة.

﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم، والله غفور رحيم﴾ (لو) شرطية الجملة الأولى بعدها هي الشرط، والجملة من الناسخ واسمه وخبره (لكان خيرا لهم) هي جواب الشرط، وهي تفيد التحقق والثبوت، كالفرق بين قولك: بلغني قيامك، وبلغني أنك قائم، حسب ما تقرره نظرية النظم وارتباط معاني الألفاظ بسياقاتها[11]. والصبر: التأني وحبس النفس عن المزالق والنواهي والمفاسد،

(11) انظر نظرية النظم والسياق في (دلائل الإعجاز) للجرجاني.

وحملها على المصالح والمحاسن والمحامد، وتحمّل المشاق المضنية في سبيل المصالح المنجية؛ ويقال: «**الصبر مر، لا يتجرعه إلا حر**». و(حتى) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ ناصبة للمضارع، وهي للغاية تفيد أن الصبر ينبغي أن يكون مُغَيّىً بخروجه ﷺ، أي لو تأنوا إلى أن تخرج إليهم (لكان) التأني (خيرا لهم) من الاستعجال، لما فيه من رعاية حسن الأدب وتعظيم الرسول ﷺ الموجبين للثناء والمغفرة والثواب وتحقيق المبتغى المطلوب، إذ روي أنهم وفدوا شافعين في أسارى بني العنبر، وذلك أنه ﷺ بعث سرية إلى حي بني العنبر وأمّر عليهم عيينة بن حصن، فهربوا وتركوا عيالهم فسباهم عيينة ثم قدم رجالهم يفدون الذراري، فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون، فعجلوا أن يخرج إليهم النبي ﷺ، فنادوه حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم، فأطلق النصف وفادى النصف[12].

(والله غفور رحيم) أي بليغ المغفرة واسع الرحمة، فلن يضن بالمغفرة ولن يضيق الرحمة عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا، وهو دعاء منه سبحانه وتعالى للذين يتأدبون مع رسول الله ﷺ إلى التوبة والإنابة؛ فوصفهم الله سبحانه وتعالى بأن أكثرهم لا يعقلون، وكرّه إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب المناسب لشخص النبي ﷺ المناقضة للتوقير اللائق بالرسول القائد والمربي، وبين لهم الأولى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم، وحبب إليهم التوبة والإنابة، ورغبهم في المغفرة والرحمة.

---

(12) عن سرية عيينة بن حصن الفزاري انظر السيرة النبوية لابن هشام 269/4 وما بعدها، وزاد المعاد 510/3.

في التذوق الفني للآيات:

عدد الجمل في هذه الآيات الأربع سبع عشرة (17) جملة: فيها تسع جمل فعلية، وثمان جمل اسمية، منها ما له محل من الإعراب ومنها ما لا محل له من الإعراب، ومنها جمل رئيسة كبرى، وجمل فرعية صغرى؛ وفي ذلك تكافؤ في التعبير بين الجمل الاسمية والجمل الفعلية، وتنوع أسلوبي بديع مشوق يدفع السأم ويناسب المعاني المقصودة.

وقد استعملت من الروابط بين الجمل أدوات ووسائل تدل على قوة التعبير ومتانة التركيب وقوة التأثير، كأدوات العطف: الواو، وأدوات الشرط: (لو)، وحروف الجر: (من)، وظروف المكان: (فوق)، (من وراء)، وأسماء الإشارة: (أولئك)، والأسماء الموصولة: (الذين)، والضمائر الظاهرة والمستترة، وهي كثيرة.

أما صور بلاغة التعبير القرآني في هذه الآيات البينات فنعد منها، ولا نحصيها:

ـ النداء في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وهو أسلوب إنشاء طلبي، استعمل بمعناه الحقيقي لأنه يطلب إقبال المؤمنين على ما سيلقى عليهم بعقولهم وضمائرهم وجميع جوارحهم.

ـ الاستعارة التمثيلية في قوله عز وجل: ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ إذ شبه حالهم في إبداء الرأي وقطع الأمر في حضرة الرسول ﷺ بحال عظيم قوم تقدم للسير أمامه بعض الناس، وكان الأدب يقضي أن يسيروا خلفه لا أمامه ولا يتقدموا بين يديه.

ـ النهي في قوله سبحانه: ﴿لا ترفعوا أصواتكم﴾، وقوله: ﴿ولا تجهروا له بالقول﴾، وهو مستعمل على حقيقته: طلب الترك على وجه الاستعلاء، لأنه صادر من أعلى إلى أدنى، من الخالق جل جلاله إلى المخلوق الضعيف، وليس هناك ما يصرف المعنى عن الحقيقة إلى المجاز.

ـ التشبيه في قوله تعالى: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾، وهو تشبيه مرسل، لذكر الأداة، أي لا تجهروا له جهرا مثل جهر بعضكم لبعض، وهو تشبيه مجمل لعدم ذكر وجه الشبه.

ـ أسلوب الشرط في قوله تعالى: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم﴾، وهو من أساليب الإنشاء غير الطلبي.

ـ التقرير باستعمال الجمل الخبرية في مثل قوله تعالى: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم﴾، وقوله عز من قائل: ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ وقوله: ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾، وقوله: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾، وقوله: ﴿والله غفور رحيم﴾؛ وحيث إن المقام مقام تقرير وتعليم وتأديب فقد ورد الخبر طلبيا على ما يقتضيه المقام وليس إنكاريا ولا ابتدائيا، لما يفيده التوكيد من الإلحاح على المعنى ومزيد لفت الانتباه إلى أهميته وجدارته، فالجمل الخبرية كلها مؤكدة تأكيدا مخففا كما يلاحظ.

ـ الحذف في قوله عز وجل: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾ على تقدير حذف مضاف تقديره قولنا: خشية أن تحبط، كما في قوله

تعالى: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾[13] أي خشية أن تضلوا، أو كراهة أن تضلوا.

ـ تنكير (مغفرة) و(أجر) في قوله تعالى ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ للدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين يوقرون رسول الله ﷺ، وفي الإعلام بمبلغ عزته ﷺ وقدر شرف منزلته.

ـ التعريض بعظيم ما يرتكبه الذين يرفعون أصواتهم عند رسول الله ﷺ واستحقاقهم عكس ما يناله الذين يغضونها.

مما يستخلص من الآيات:

من زهر الآداب التي تقتطف من هذه الآيات البينات أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله عز وجل ورسوله ﷺ أو تصدر عن الله ورسوله مقدمة على الأمور كلها من غير حصر ولا استثناء ولا تقييد، واعتبار ذلك واجبا ضروريا لا مناص منه، مصداقاً لقوله جل علاه: ﴿فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[14] وقولــــه ﷺ: «**لا يومن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**»[15].

(13) سورة النساء 175/4.

(14) سورة النساء 64/4.

(15) خرجه الحافظ أبو نعيم، والطبراني، والأئمة في مسانيدهم، وذكره الإمام النووي في الأربعين وقال: حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح؛ لكن تعقبه ابن رجب الحنبلي مستبعدا تصحيحه: جامع العلوم والحكم، بتحقيق الأحمدي أبو النور1146/3.

يمكن استثمار هذه الآيات في تقرير آداب المتعلم متلقي العلم مع المعلم مبلغ العلم[16]، وهي آداب كثيرة كالتركيز، والتوقير، والتقدير، والمسارعة إلى تطبيق التوجيه وتنفيذ النصح والإرشاد، واجتناب التقدم بين يدي المعلم بالكلام لاسيما إذا سأله أحد.

فمن الفضول القبيح أن يتقدم المتعلم على معلمه بالجواب أو يسابقه إليه، فإن السائل لا يرضى بجواب غير الشيخ، مع ما في مسابقة الشيخ إلى الإجابة من التظاهر بالعلم وإشهار الشأن والتقدم على أهل الفضل.

ومن آداب المتعلم أن يغض صوته عند حضور معلمه، بل لايتكلم إلا أن يأذن له في الكلام، ثم يكون تكلمه بخفض الصوت وتعظيم مقام الدرس والتلقي، إلا عند المذاكرة فالكلام حينئذ محمود، إذ بالكلام تعرف أحوال الرجال، وبالمذاكرة تعرف درجة التمكن، ولكن يكون الكلام مع المعلم على وجه الاسترشاد والاستعلام، من غير معارضة ولا جدال، وإلا فالسكوت أسلم.

ومن الآداب ألا يتقدم أمامه في المشي إن رافقه إلا بإذنه.

وتلك آداب قل في هذا الزمان من يلتفت إليها بله أن يتحلى بها أو يطبقها!!. ولقد روي عن سلف هذه الأمة بعض حكايات من هذه الآداب؛ فمن ذلك ما يحكى عن أبي عبيدة ـ وهو رجل كانت

---

(16) انظر في ذلك بعض ما ذكره ابن عجيبة في البحر المديد 156/7 وما بعدها. ولقد عقد بعض السلف الصالح فصولا في كتبهم أو وضعوا رسائل ومؤلفات كاملة في آداب العالم والتعلم وشروط تلقي العلم وتبليغه، مثل أدب الدنيا والدين للماوردي، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر وغيرهما.

له مكانة هائلة من العلم والزهد وثوثيق الرواية ـ أنه قال: «**ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه**»[17].

في محراب الآيات:

آداب رفيعة نابعة من الرحمة الإلهية والعناية الربانية، من مصلحة المجتمعات أن تسود فيها وتنتشر، ومن خير الأفراد أن يتأدبوا بها ويتخلقوا، ومن المجدي لكل متلقّ أن يتحلى بها مع من يلقنه علما أو يفيده ثقافة ومعرفة؛ وهي مع الرسول ﷺ وسنته وسيرته أحرى وأولى:

الأول غض الصوت وعدم رفعه بين يدي رسول الله ﷺ ولا عند مقامات حضوره المعنوي، لأنه محترم حيا وفي قبره صلوات الله وسلامه عليه دائما، وعدم الجهر له بالقول كما يجهر المتكلم لأي مخاطب ممن عداه، بل يخاطبه أو يتكلم عنه بسكينة ووقار وتعظيم، تقديرا لمكانة النبوة وعظيم قدرها مع انحطاط سائر الرتب ـ وإن علت ـ عن رتبتها، كما قال سبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾[18] وقال: ﴿لتومنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه..﴾[19]؛ ويقاس على ذلك موقف الطالب المتعلم مع العالم المعلم والمربي، وموقف الصغير مع الكبير، والمحكوم مع الحاكم.

---

(17) الكشاف 559/3.

(18) سورة النور 61/24.

(19) سورة الفتح 9/68.

وأما في حق الرسول ﷺ فليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر المشار إليهما في الآية الكريمة ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة به ﷺ، فإن ذلك كفر، والمخاطبون هنا (الذين آمنوا)، وإنما الغرض الصوت الذي يسمع من جرسه ما لا يناسب مقام المهابة والوقار لدى العظماء والكبراء؛ كما أنه ليس الغرض برفع الصوت ما لا يتأذى به الرسول ﷺ، وهو ما يكون من المومنين في حرب محارب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك؛ ففي الأثر أنه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: «**اصرخ بالناس**»[20]، وكان أجهر الناس صوتا[21].

والثاني عدم التقدم على الشارع من الكتاب والسنة برأي ولا رغبة ولا ميل، فلا يرى المسلم رأيه وعقلَه واختياره فوق رأي الشرع، وإنما يكون مستسلما لشرع ربه، حافظا لمنهج النبوة المستمد من الوحي..

والثالث عدم التحدث عن النبي ﷺ بجلافة وصلافة، وإنما يتحدث عنه بما يليق به من التعظيم والتبجيل، ولا يتجاسر عليه ولا

(20) يقول الله عز وجل في غزوة حنين: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المومنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء، والله غفور رحيم﴾ (سورة التوبة 9/25 – 27)، وقد وقعت الغزوة في 6 أو 7 شوال من السنة 8 للهجرة (29 أو30 يناير 631 م). وخبرها في السيرة النبوية لابن هشام 437/2، والطبقات لابن سعد 149/2، وتاريخ الطبري 125/3، ونور اليقين 272، وفقه السيرة لسعيد رمضان البوطي 284.

(21) يروى أن غارة أتت القوم يوما فصاح العباس: ياصاحباه، فأسقطت الحوامل لشدة صوته، وزعم الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم (الكشاف 555/3).

على سنته ولا على سيرته. وهذا التوجيه ينسحب على معاملة المسلم مع كبراء الأمة من العلماء والصلحاء والأئمة الفضلاء، فالواجب معاملة هؤلاء بما يليق بهم من التأدب والاحترام والتوقير وعدم مناداتهم بأسمائهم مجردة.

وما أحوج طالب العلم اليوم إلى التحلي بهذه الآداب، فلا يزعج أستاذه فيطلبه في ظروف غير مناسبة، أو يهتف إليه في الأوقات الخاصة، أو يزوره في غير ضرورة ولو اقتضى الأمر طول انتظار، ولا يعترض سبيله أو يقف بباب بيته أو مكتبه أو يتطلع إلى معرفة بعض خصوصياته وأسراره. ولقد كان من آداب المتعلم عند الأقدمين ألا يبيت مع شيخه في مسكن واحد، وألا يأكل معه إلا أن يعزم عليه، وألا يجلس على فراشه أو سجادته إلا بأمره.

وقد يتعارض الأمر والأدب، وحينئذ هل يقدم الأمر أو ينضبط بالأدب؟ بين مربينا وعلمائنا في ذلك خلاف، لكن الأمر يختلف بحسب النوازل، فقد ثبت أن عليا رضي الله عنه قدم الأدب على الأمر في صلح الحديبية حين قال له النبي ﷺ: «**امسح اسم (رسول الله ﷺ) من الصحيفة**»، فأبى علي أن ينفذ أمر رسول الله ﷺ لا تمرداً ولا عصياناً ولكن مزيد حرص على الأدب مع الله ورسوله ﷺ، وقال: «**والله لا أمحوك أبدا**»[22].

وهناك أدب رابع لكنه أدب تربوي يحتاط به المرء لنفسه ويقيها سوء المصير ووخيم العاقبة، وهو الاحتراس من بطلان العمل

(22) ينظر تفسير الآية 26 من سورة الفتح 68 في كتب التفسير والتأويل، وينظر خبر صلح الحديبية في صحيح البخاري 121/5، وتاريخ الطبري 620/2، وطبقات ابن سعد 95/2، والروض الأنف 39/4.

وحبوطه، فإن فيما يعمله المرء ما قد لا يدري أنه يحبط عمله، والعياذ بالله، فالأحوط للمرء والأولى له أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك، لا يزال يتحفظ ويحترز ويحتاط ويحترس.

وأدب خامس هو الصبر، والصبر صفة حميدة ومطية مهيجة لبلوغ المقاصد ومقاومة الضلال وتسلق درج الإدراك؛ والصابرون نائلون ما ثبتوا على صبرهم وحبسوا أنفسهم عن أن تنازعها الأهواء والنزغات، أمر به الله عز وجل في مثل قوله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[23]، أو قوله سبحانه: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾[24]، أو قوله جل جلاله: ﴿ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[25].

---

(23) سورة الكهف 28/18.

(24) سورة النحل 127/16.

(25) سورة آل عمران 200/3.

3

مسؤولية التبليغ وخطورة الإعلام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ(7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(8).

مدخل:

مسؤولية المبلغين وحكمة المتلقين وخطورة الإعلام وأثر الإيمان والصدق في الأمن والاستقرار

تنتشر في الأيام الحالية وسائل الإعلام والاتصال والتواصل المسموعة والمقروءة، وتتعدد منابرها وتتكاثر المواقع ومحطات البث الفضائية والرقمية المختلفة؛ لكن المرء يتساءل في دهشة وحيرة:

ترى هل تشعر هذه الوسائل والمنابر بالمسؤولية وجسامتها وتقدر للكلمة قدرها؟

وهل تحسب للمتلقي حسابه ولمشاعره نبضها؟

وهل تسلك مسلك الصدق في نقل الخبر والأمانة في نشر المعلومة؟

أم إنها تخبط ولا تدقق، وتهرف ولا تحقق، وتضلل ولا تبالي بالصدق، وتطمع في الكسب السريع، ولا تهتم إلا باكتساب الشهرة والزبونية!!

المتكلمون اليوم كثيرون، والكاتبون موفورون، ولكن قليل منهم من يزن كلامه أو يصون عن الابتذال أقواله، أو يحفظ عن الادعاء والبهتان لسانه، أو يقوم خواطره ويقلبها، أو يقدر قيمة الخبر وأهمية الكلمة وتأثير الخطاب..

فهل يصدق الإنسان كل مقول؟ وينقاد لكل منقول؟ ويقبل كل هلوسة؟

ومن زاوية أخرى يبدو جليا أن إنسان عصرنا كثرت عليه الوسوسات والنزغات، وغلبت عليه الأهواء والشهوات..

ويقف الوحي المحفوظ شامخا حكيما من خلال هذه الآيات البينات من سورة الحجرات، وكذا سائر مقولات الوحي بشقيه: الكتاب والسنة، ليعطي هذا الإنسان التائه الحائر أو ذلك المتبختر الغافل، توجيها راشدا يحدد مسؤولية المبلغين وحكمة المتلقين،

وينبه إلى خطورة الإعلام في حياة الناس وتوجيهها، وأثر الإيمان والصدق في استقرار الشعوب وأمنها، في إطار نظام الأخلاق الاجتماعية البانية المبثوثة في الوحي المتمثل في سور القرآن الكريم وآياته، والحديث الشريف وتوجيهاته، ضمن المقاصد الأساسية للتشريع الإسلامي التي تتغيى في مجمل أحكامها مصالح الناس أفرادا وجماعات ودولا وشعوبا.

فكيف ينبغي لناقل الخبر ومبلغه نقله وتبليغه؟

وكيف يجب على المتلقي العادي والمسؤول تقبله وتفعيله؟

وما هي الآثار المترتبة عن سوء نقل الخبر وسوء تقبله وسوء تصريفه واستثماره؟

وما هي ضوابط النقل والتلقي للمعرفة والخبر؟

وما سلبيات التسرع في قبول الأخبار بدون تريث ولا تثبت؟

وما علاقة ذلك كله بالاعتقاد الإيماني والسلوك الإنساني والرشد الفردي والجماعي؟

لنبحث عن الإجابات في هذه الآيات الثلاث البينات من سورة الحجرات.

أسباب النزول:

ذكر أكثر المفسرين[1] أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة ابن أبي معيط، وكان من فضلاء الصحابة حين بعثه رسول الله ﷺ على

---

(1) انظر البيضاوي 415/2 والقرطبي 311/16/8، والزمخشري559/3، والرازي 118/28/14.

صدقات بني المصطلق من خزاعة ليأتي بزكاة أموالهم، وكان بينهم وبين أسرة الوليد عداء في الجاهلية فوسوس له الشيطان به فهاب أن يدخل عليهم دارهم، فلما سمعوا بمقدمه مبعوثا من رسول الله ﷺ خرجوا يتلقونه تعظيما لأمره ﷺ، لكن الوليد ظن أنهم مقاتلوه، فرجع وستر على نفسه هاجس الخوف الذي أصابه وقال لرسول الله ﷺ إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فغضب رسول الله ﷺ وهمّ بغزوهم. وما زال كذلك حتى أتى وفد منهم يسترضي رسول الله ﷺ ويستعتب عنده خوفا من أن يكون قد بلغه عنهم سوء، فأخبروه بأنهم على العهد، وأن الوليد رجع من الطريق ولم يصل إليهم؛ فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فوصل إليهم قبل المغرب، فإذا بهم يؤذنون ويصلون المغرب والعشاء، فعلم أنهم لم يرتدوا، وأنهم على خير، وجاءوا بالزكوات فسلموها إليه فرجع؛ وأنزل الله تعالى هذه الآية.

وعند ابن عبد البر في الاستيعاب رأي آخر، أنه «**لا يصح أن الآية نزلت في قضية الوليد، لأنه كان في زمن النبي ﷺ من ثمانية أعوام أو من عشرة، فكيف يبعثه رسولا ! !**»[2] ويعقب ابن عجيبة بعد ذلك على هذا الرأي بقوله: «**لا غرابة فيه، وقد كان ﷺ يؤمّر أسامة بن زيد على جيش فيه أبو بكر وعمر مع حداثة سنه كما في البخاري وغيره**»[3].

---

(2) الاستيعاب 1552/4 ـ 1553.

(3) البحر المديد161/7. ومما يؤيد قول ابن عجيبة ويرجحه أن لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن أن الآية موضوعنا أنزلت في الوليد بن عقبة، وأن أهل النسب والعلم بالسير ذكروا أن الوليد وأخاه عُمارة ابني عقبة خرجا ليردا أختهما أم كلثوم بنت عقبة عن الهجرة، وكانت هجرتها بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، ومن يكون غلاما يوم الفتح لا يقدر أن يرد أخته قبل الفتح، ثم أسلم يوم فتح مكة وهو آنئذ يناهز الاحتلام؛ ينظر أسد الغابة 467/5 – 470.

القراءات:

في هذه الآيات الكريمات كلمة واحدة اختلفت قراءتها، وهي قوله تعالى: ﴿فتبينوا﴾؟

قرأها عامة السبعة (فتبينوا) بالباء التحتية الموحدة بعدها مثناة تحتية مشددة ثم نون: من التبيُّن. وقرأها ابن مسعود وحمزة والكسائي (فتثبتوا) بالثاء المثلثة بعدها باء تحتية موحدة مشددة ثم تاء مثناة فوقية: من التثبت. والتثبت والتبين متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعرف، والمعنى على القراءتين معاً واحدٌ، وهو الأمر بالتأني وعدم العجلة حتى تظهر الحقيقة فيما أنبأ به الفاسق[4].

مسؤولية المبلغين:

في بداية هذه الآيات البينات يتوجه الحق سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين بنداء رباني رحيم مثير لأذهانهم داع لانفتاح أفئدتهم، مستعملا النداء المحبب إليهم الجالب لشوقهم: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾، ويلفت الانتباه بقوله تعالى ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ إلى أن المعارف والأخبار قد يأتي بها فاسق غير موثق أو كاذب لم يحقق، أو مخطئ لم يدقق، فيترتب على ذلك حكم جائر، ويكون الحاكم بقوله قد اقتفى أثرا زائفا، واعتمد قولا كاذبا، واستند إلى معلومات غير دقيقة وربما تكون باطلة؛ وقد سمى الله سبحانه وتعالى ناقل الخبر فاسقا أي كاذبا.. فكأنه قيل: يجب التثبت من أي فاسق جاء بأي نبأ.

---

(4) ذكرت القراءتان لهذه الكلمة حيث وردت في قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ (سورة النساء 93/4) وهنا في سورة الحجرات: انظر النشر 257/2، وانظر أيضا تفاسير: البيضاوي، والزمخشري، والقرطبي، وابن كثير، والرازي.

والفاسق هو الكذاب أو مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب، أو المعلن بالذنب، أو الذي لا يستحيي من الله، والفسوق بهذا المفهوم خروج عن القصد وانسلاخ من الحق. و(نبأ) أي خبر ذو شأن؛ ويرى الإمام الرازي في ذهاب بعض المفسرين إلى أن لفظ الفاسق في الآية مراد به الصحابي الوليد بن عقبة: «أنه سيء بعيد، لأنه ـ أي الوليد ـ توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقا، وكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الإيمان، لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ففسق عن أمر ربه﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها..﴾[7]، إلى غير ذلك»[8]. ولما كان رسول الله ﷺ والذين معه من الصحابة الكرام بالمنزلة الرفيعة من الإيمان والفضل والاستقامة، فإنه لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة، ولأجل ذلك قيل: ﴿إن جاءكم﴾ بحرف الشك.

حكمة المتلقين:

إن واجب المؤمنين في مثل هذا الموقف، هو حكمة تلقي الأخبار، والحذر من مغبة التهاون في تحقيقها: ﴿فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ أي إن الناس مأمورون

(5) سورة المنافقون 6/63.

(6) سورة الكهف 49/18.

(7) سورة السجدة 20/32.

(8) مفاتيح الغيب 118/28/14.

بأن يتوقفوا في قبول الخبر واستثماره وتفعيل أثره في الحكم والتعامل، وأن يتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا يعتمدوا قول الفاسق، لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب، وقبول خبره قد يكون ضربا من الظلم وطريقا إلى الندم. وإن ظنوا النبأ الذي يأتي به الفاسق حقا، وتصرفوا بمقتضاه تصرفا سريعا بدون تروٍّ ولا تأنٍ، فإنهم سيندمون على ما يفعلون إذا ظهر لهم لاحقا كذب الفاسق فيما أنبأ به، ولن ينفع ذلك حينئذ. ومعنى (تبينوا) توقفوا إلى أن يتبين لكم الحال، وتثبتوا من صحة الخبر قبل أن تقولوا أو تفعلوا أو تحكموا، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول من لا يتحرى الصدق ولا يتحامى الكذب. ويحتمل أن يكون المراد: فتبينوا واتقوا، وقوله تعالى: (أن تصيبوا) يبين ذلك، أي خشية إصابة قوم منكم في أبدانهم أو أموالهم. وذهب البصريون إلى أن المعنى: كراهة أن تصيبوا قوما، وذهب الكوفيون إلى أن المعنى: لئلا تصيبوا[9]. وقوله تعالى (بجهالة) يقدر حالا، أي أن تصيبوهم جاهلين، ثم حقق ذلك بقوله: (فتصبحوا) أي فتصيروا نادمين، لتصرفكم خطأ بعدم علم منكم، وأنتم جاهلون بحقيقة الأمر وكنه القصة؛ وهو بيان لأن الجاهل لا بد من أن يكون على فعله نادما. و«أصبح» في اللغة يستعمل للدلالة على ثلاثة معان:

- فيستعمل بمعنى الدخول في الصباح، نحو قولك: أصبحنا نذكر الله ونقوم بالواجب؛

- ويستعمل بمعنى الحال الذي كان عليه الأمر وقت الصباح، كأن يقال عن مريض: أصبح اليوم مريضنا خيرا مما كان، غير أنه تغير

(9) المصدر نفسه.

ضحوة النهار، يريد كونه في الصبح على حاله، كأنه يقول: كان المريض وقت الصبح خيرا وتغير ضحوة النهار؛

ـ ويستعمل بمعنى صار، نحو قولك: أصبح الطالب أستاذا، بمعنى صار، من غير إرادة وقت دون وقت.

والمراد ههنا بقوله تعالى: (فتصبحوا) هو المعنى الثالث: الصيرورة غير المرتبطة بوقت معين: أي فتصيروا آخذين في الندم متلبسين به ثم تستديمونه، وذلك مثل المعنى في قوله تعالى: ﴿**فأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾[10] أي أخذتم في الأخوة وأنتم فيها مستمرون.

و(نادمين) من الندم وهو همّ دائم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزوم، وهو ضرب من الغم، فيغتم المرء على ما وقع منه ويتمنى أنه لم يقع. والنون والدال والميم في تقاليبها اللغوية لا تنفك عن معنى الدوام: أنظر إلى لفظي (أدمن) على أمر ما، و(مدمن) عليه، أي أقام عليه فهو مقيم، ومنه المدينة.

وإذا ربطنا الأمر بما روي في أسباب النزول يتضح أنهم لو لم يتبينوا في نبأ الوليد عن بني المصطلق لعاملوهم معاملة المرتدين، ولو فعلوا ذلك لندموا، وهكذا يندم كل متسرع في قبول الخبر، فيصير على فعله الخاطئ نادما على العجلة وترك التأني، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «**إن التبين من الله، والعجلة من الشيطان**»[11]؛ وذكر الإمام

---

(10) سورة آل عمران 103/3.

(11) رواه الطبراني من طريق محمد بن سعد، عن ابن عباس: 124/26، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع. وللحديث شاهد من حديث أنس: أن النبي ﷺ قال: «التأني من الرحمن، والعجلة من الشيطان»: أخرجه البيهقي والزيلعي، كلاهما من طريق سعد بن سنان عن أنس، وهو ضعيف كذلك.

القشيري في معنى قوله تعالى ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ..﴾ الآية: إذا أتاكم رجل غير موثوق بصدقه وعدالته بخبر من الأخبار فتبينوا.

وفي قوله عز وجل ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله..﴾ يقول القشيري إنه سبحانه يشير إلى رسول الإلهام في نفوس الخلق، يلهمها فجورها وتقواها، لو يطيعهم هذا الرسول في كثير من أمر النفس الأمارة لوقعوا في الهلاك[12]، ومذهب المفسرين في معناه أن بينكم الرسول المعظم والنبي المكرم؛ و(فيكم) تقديره: كائن فيكم، أو موجود فيكم. والمصدر المسبوك من (أن) واسمها وخبرها ساد مسد مفعولي (اعلموا).

﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾: أي لو يتسرع الرسول ﷺ إلى ما أردتم، ومعنى طاعة الرسول لهم: أن يسمع منهم ما يبلغونه عن الناس، فيأمر بما يقتضيه بلاغهم.

والعنت: الإثم، يقال عَنِتَ الرجل؛ والعنت أيضا: الفجور والزنى، كما في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾[13]؛ والعنت أيضا: الوقوع في أمر شاق، والمشقة الشديدة، والإثم..

---

(12) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد 160/7، ولعل مما يسند هذا الرأي إشارات الرسول الكريم ﷺ إلى إملاءات القلوب وتسويلات النفوس في مثل قوله ﷺ: «استفت قلبك»: من حديث وابصة، أخرجه الإمام أحمد، أو قوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»: من حديث النعمان بن بشير، أخرجه البخاري ومسلم.

(13) ونص الآية كاملة: ﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المومنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المومنات، والله أعلم بإيمانكم، بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، ذلك لمن خشي العنت منكم، وأن تصبروا خير لكم، والله غفور رحيم﴾: سورة النساء 25/4.

أثر الإيمان والصدق في تحقيق الأمن والاستقرار:

﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾: ولكن الله عز وجل، عصمة للعباد من ذلك وحماية، قرب إليهم الإيمان وأدخله في قلوبهم ثم زينه فيها حتى لا يفارقونه فلا يخرج من قلوبهم، بل يزداد كل يوم ويقوى، ومن كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم، كانت العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل، ولهذا قال تعالى في الأول: ﴿حبب إليكم﴾ ثم قال: ﴿وزينه﴾ كأنه قربه إليهم ثم أقامه في قلوبهم. وقد يكون ذلك التحبيب والتزيين بأثر القرآن وحسن تلقيه والعمل به، وقد يكون بالإلهامات الربانية، والكرَم الإلهي. وفي مقابل تحبيب الإيمان وتزيينه يمتن الحق سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين المستقيمين على الهدى بأنه بغض إليهم بنور عنايته ثلاثة مكاره مهلكة هي الكفر، والفسوق، والعصيان؛ ومن وفق إلى ذلك فهو الراشد إلى الحق، فضلا من الله ونعمة منه سبحانه وتعالى. عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: **«الإسلام علانية، والإيمان في القلب ـ قال: ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول ـ التقوى ههنا، التقوى ههنا»**[14].

وقد أشار بعض المفسرين إلى أن أحسن تقدير لمعنى قوله تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾ استدراكا بعد قوله عز وجل: ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾: **«ولكن الله لا يقره على طاعتكم بل ينزل عليه الوحي بما فيه صلاحكم**

(14) أخرجه الإمام أحمد في المسند 3/135، 12403، وأبو يعلى 5/301 – 302 ح 2923، والهيثمي 1/57 وإسناده ضعيف.

وراحتكم ، لأن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، فلا يسلك بكم إلا ما يليق بشأنكم من الحفظ والعصمة»[15].

﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾: (كَرِه) يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد، فإذا شدد زاد له آخر؛ لكنه لما تضمن معنى التبغيض نزل (كره) منزلة (بغض) فعدي إلى آخر بإلى، أو نزل (إليكم) منزلة مفعول آخر؛ و(الكفر) تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالجحود؛ و(الفسوق) ستر الحق والخروج عن قصد الإيمان ومحجته إلى الباطل وهاويته بركوب الكبائر، مشتق من الرُّطَبة خرجت من قشرها، والفأرة من جحرها، أو هي الذنوب الكبيرة؛ و(العصيان) الامتناع عن الانقياد بترك واجب، أو فعل محرم، أو هو جمع المعاصي والإعراض عن طلب الحق، وترك الانقياد والمضيِّ لما أمر به الشارع. عن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد به الكذب خاصة؛ وقيل: كل ما خرج عن الطاعة[16].

﴿أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة﴾: أي الموافقون للرشد، يأخذون ما يأتيهم وينتهون عما ينهاهم، والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، من الرشادة وهي الصخرة الصماء. وهو امتداح لأصحاب رسول الله ﷺ ولكل من يتثبت ويتبين ويحتاط ويحترس من الخبر الكاذب والإعلام الباطل، وثناء عليهم بالإشارة إلى أنهم بذلك يصيبون الحق ولا يميلون عن الاستقامة، فهم السالكون سبيل الرشاد، لا يتهورون ولا يضلون، وهدايتهم فضل من الله ونعمة؛ وقوله تعالى: (فضلا من الله) إشارة إلى ما هو من جانب الله الغني

---

(15) البحر المديد 162/7.

(16) القرطبي 311/16/8.

سبحانه من الاستجابة والتكرم، وهو تعليل لـ(كرّه) و(حبّب)، أي هذا العطاء الذي مُنحتموه هو فضل منه عز وجل عليكم من لدنه؛ و(ونعمة) إشارة إلى ما هو من جانب العبد من اندفاع الحاجة؛ والفرق بين الفضل والنعمة أن فضل الله إشارة إلى ما عنده من الخير وهو مستغن عنه، والنعمة إشارة إلى ما يصل إلى العبد وهو محتاج إليه، لأن الفضل في الأصل ينبئ عن الزيادة.. والنعمة تنبئ عن الرأفة والرحمة.. وفيه معنى لطيف وهو تأكيد الإعطاء.

﴿والله عليم﴾ بهم وبنياتهم وبواعث نفوسهم، أو عليم بأولئك الراشدين خاصة، أو بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل، أو عليم بخلقه وما يعملون، أو بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية، أو بما يصلح حالهم، ﴿حكيم﴾ في خلقه وصنعه وتدبيره لعباده، وفي إنعامه عليهم حيث يفضل وينعم بالتوفيق عليهم، وفي أقواله وأفعاله وشرعه وقدره؛ فهو الذي أهّل أصحاب النبي ﷺ للخير وأصفاه عليهم، فكانوا أفضل هذه الأمة على الإطلاق، ولا مطمع لأحد أتى بعدهم أن يفوقهم في الفضل والكمال في الدنيا ولا في الآخرة، ولكن الإنسان مهيأ للخير والصلاح إن حرص نال وإن اجتهد أفلح وإن احترز واحترس اجتنب الانخداع والزور.

خطورة الإعلام:

في الدلالة البينة للآية: اعلموا أيها المؤمنون أن بين أظهركم الرسول المعظم والنبي المكرم المعصوم عن اتباع الهوى، فعظموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم في أنفسكم، كما قال

تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[17]؛ أو اعلموا أيها المؤمنون أن فيكم سنته ومنهجه، فاحذروا أن تكذبوا أو تقولوا الباطل فإن فيكم الوحي بشقيه: الكتاب والسنة إن طبقتموهما وحكمتموهما واعتصمتم بهما لن تضلوا أبدا، وستجدون فيهما ما يفضح الكذب والكذابين، ويكشف الباطل والمبطلين.

وتبين هذه الآيات أن ولاة الأمر في الأمة والمدبرين لشأنها لو تسارعوا إلى ما يريد أهل الباطل والزيف ومروجو الدعايات الباطلة والأخبار الزائفة، واعتمدوا أقوالهم وبلاغاتهم قبل وضوح الأمر لنال الناس مشقة وجهد، وربما إثم وهلاك، كما قال تعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن..﴾[18]، وعبارة ﴿في كثير من الأمر﴾ دالة على أن ولاة الأمر في الأمة قد يؤدي بهم مبدأ التشاور إلى أن يوافقوا الفاسقين في بعض الأمر، أو ينخدعوا بوسائل الإعلام المغرضة فيتصرفون بمقتضى أخبارهم وتصريحاتهم، تحقيقا للتوجيه الرباني الوارد في قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾[19].

وهناك أربع دلالات أخرى تستفاد من هذه الآيات البينات:

ثنتان مرتبطتان بسياقها التاريخي، فأولاهما أن بعض الصحابة زينوا لرسول الله ﷺ تصديق دعوى الوليد بن عقبة والإيقاع ببني المصطلق؛ والثانية أن مثل هذه الهفوات كانت تصدر عن بعضهم،

---

(17) سورة الأحزاب 6/33.

(18) سورة المؤمنون 72/23.

(19) سورة آل عمران 159/3.

وأن البعض منهم كان جِدُّهم في التقوى يَزَعُهم عن الجسارة على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الايمان﴾ أي إلى بعضكم، ولكن أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم، وهذا من إيجازات القرآن الكريم البليغة ولمحاته اللطيفة.

وثنتان أخريان عامتان مفيدتان لكل الأجيال، فأولاهما تنبيه إلى خطورة وسائل الإعلام في الأمة وما يمكن أن تجلب إليها من المشاكل الاجتماعية والإدارية والسياسية الخطيرة أو تحدث فيها من الفتنة والفوضى وعدم الاستقرار إذا لم يُنهج منهج التحري والتثبت والتأني؛ والثانية دالة على أن صدق الاعتقاد وقوة الإيمان لهما أثرهما في تبديد غيوم الفرقة وسحائب الجور ورياح إعنات الناس وإرهاقهم بالسلوكات المنحرفة المترتبة عن الانسياق وراء الأباطيل والأضاليل.

في التذوق الفني:

في الآيات الثلاث صور بديعة من البيان والبلاغة لعلنا بالوقوف عند بعضها ندرك المقاصد الربانية بتوفيق ورشاد، ونتذوق روعة التعبير القرآني بتبين واقتناع. ولقد أشار الإمام الزمخشري إلى أن الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ولكن الله حبب إليكم الايمان﴾ اكتفى بالتغاير في الصفة واختصر ولم يقل حبب إلى بعضكم الإيمان، ومن ثم فالخطاب في الآية مع بعض من المؤمنين، وهم غير المخاطبين بقوله ﴿لو يطيعكم﴾[20].

---

(20) الكشاف3/559.

ومن المعلوم أن الجملة الشرطية في كثير من المواضع تستعمل لبيان امتناع الشرط لامتناع الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[21]، وقوله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[22]، فالمعنى فيهما امتناع أن يكون فيهما آلهة لعدم فسادهما، وامتناع أن يكون هذا القرآن من عند غير الله لعدم وجود الاختلاف فيه.

وفي قوله تعالى ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر﴾ كناية عن الإمداد والتوفيق؛ والعطف فيها تَدَرج: فالكفر الذي قدم في الذكر أشدها، والفسوق الذي عقب به هو دون الكفر، والعصيان المتأخر في الذكر أخفها.

وتقديم الخبر في ﴿أولئك هم الراشدون﴾ إنما هو لتوبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ لآرائهم، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه.

والتعبير في قوله تعالى ﴿يطيعكم﴾ بالمضارع الذي يفيد الاستمرار دون الماضي الذي يفيد الانقطاع والتوقف عن الفعل دال على مفهومين:

الأول أنهم كانوا معولين على الاستمرار فيما اعتادوه من استصواب ما يرونه وحمل الرسول الأكرم ﷺ على التصرف المبني عليه.

---

(21) سورة الأنبياء 22/21.

(22) سورة النساء 81/4.

والثاني أن عنتهم إنما يلزم في استمرار طاعته لهم في كل ما يعرض من الأمور، وأما طاعته في بعض الأمور استئلافا لهم فلا، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زين لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق تصديقا لقول الوليد، وأن بعضهم كانوا يتصونون ويتحرجون الوقوع بهم تأنيا وتثبتا في الأمر، وهم الذين استثناهم الله عز وجل بقوله: ﴿ولكن الله حبب إليكم..﴾، وأسنده إلى الكل تنبيها على أن أكثرهم تحرجوا الوقوع بالقوم وتأنوا.. وهو تجديد للخطاب وتوجيه إلى بعضهم بطريق الاستدراك، بيانا لبراءتهم عن أوصاف الأولين وإحمادا لأفعالهم[23].

وأما تنكير (فاسق) و(نبأ) في قوله تعالى ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ فلقصد الشياع والتعميم في جميع الفساق، لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم كما إذا وقعت في سياق النفي.

وفي قوله تعالى ﴿أولئك هم الراشدون﴾ حصر صفة على موصوف، أي هم الراشدون لا غيرهم؛ وفيه أيضا الالتفات من الحضور في قوله تعالى: ﴿حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم..﴾ إلى الغيبة.

وفي قوله تعالى: ﴿حبب إليكم الإيمان﴾ وقوله: ﴿كره إليكم الكفر﴾ طباق الإيجاب.

فتلك صور وأساليب تعبيرية بليغة تقرب المعاني وتبهج النفوس وتفتح آفاق الفكر والقلب للانفعال بالقرآن الكريم والتفاعل مع مقاصده ودلالاته وتوجيهاته، والانفعال بفنيته.

(23) انظر تفسيري أبي السعود، وابن عجيبة.

مستخلصات هادية:

في الآيات إرشاد رباني حكيم إلى ضرورة التبين والتريث وعدم الانسياق مع الفاسقين باعتبارهم منحرفين عن الاستقامة خارجين عن الجادة، وبيان من الحق سبحانه لوجوب الاحتراز من الاعتماد على أقوال مثل هؤلاء، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بين أفراد المجتمع؛ ويتضمن ذلك نهياً عن التهور والتسرع، وتحذيرا من أسباب الفساد والفتنة. وقد نهى الله عز وجل في مناسبات كثيرة عن الفساد والإفساد واتباع المفسدين، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[24]؛ وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[25].

فالأخذ بمبدأ التثبت والتبين عند سماع خبر من شخص لم يعرف بالتقوى والاستقامة الكاملة والعدالة التامة واجب، صونا لكرامة الأفراد والمجتمعات، وحماية للأرواح والأموال والمصالح والممتلكات.

وقد أحسن أهل الحديث الاستفادة من مسألة التأكد من الخبر ومعرفة عدالة الناقلين والمخبرين في مجال التحمل والأداء ووظفوها في آلياتهم ومناهجهم، فكان لها أثر كبير في تطور علوم الحديث وترسيخ منهج توثيق الرواية وتعديل الرواة والوصول من ذلك إلى قبول الروايات وتصحيحها أو تضعيفها أو تكذيبها وردها، ومن هنا رفض طوائف من العلماء قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه

(24) سورة الأعراف142/7.

(25) سورة هود84/11.

في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال[26].

وفي أيامنا هذه لطالما طلعت علينا وسائل الإعلام الحديثة بأخبار كاذبة أو مشوشة أو مزيفة للحقائق أو طاعنة في المقدس، أو مؤولة حدثاً أو مقولةً تأويلا باطلا، فالواجب في مثل ذلك أن يتريث قارئ الخبر ومتلقيه، أو سامعه وملتقطه، حتى يتبين حقيقة الأمر ويتثبت من الخبر ويتأكد من صدق التأويل والتبليغ، مع ما أمسى ممكنا من التشويش والتزييف بتركيب الكلام اصطناعا، وتركيب الصور والمشاهد تلفيقا نظرا لكثرة الوسائل التقنية المتطورة المتاحة التي يمكن أن يتسلط عليها كل من عدم الضمير أو جمحت فيه روح العدوانية والزيف والتضليل!!

ومن أهم ما تثيره هذه الآيات البينات مسألتان:

مسألة قبول خبر العدل الواحد وحجيته؟

ومسألة شهادة الفاسق وقبولها أو ردّها؟

فأما خبر الواحد فقد ذهب علماؤنا إلى قبوله واعتماده حجة، وقالوا: إن في هذه الآية دليلا على ذلك إذا كان ناقل الخبر عدلا، وأما من ثبت فسقه فقوله باطل إجماعا، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها، وإنما رتب في هذه الآيات من سورة الحجرات التوقف عن قبول الخبر على كون المخبر فاسقا، ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل لما كان للترتيب على الفاسق فائدة، وهذا من باب التمسك بالمفهوم.

---

(26) ابن كثير 13/144..

وقالوا برد شهادة الفاسق لأن في الآية أمرا بالتبين، ولو قبل قوله لما كان أمر بالتبين؛ ودل قوله تعالى: ﴿أن تصيبوا قوما بجهالة﴾ على أن البناء على قول الفاسق لا يكون جائرا، لأن الجهل فوق الخطأ، والمجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلا[27].

وأما شهادة الفاسق فهي مردودة كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾[28]؛ وقد جوز الإمام الشافعي رحمه الله تعالى إمامة الفاسق، لكن بعض المالكية ـ كالقرطبي ـ يقولون بوجوب إعادة من صلى خلف فاسق، فمن لا يؤتمن على حبة مال كيف يصح أن يؤتمن على قنطار دين، ومع ذلك فلا يجوز لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة، تجنبا للفتنة، أي دفعا للمضرة التي هي أولى من جلب المنفعة.

وهناك سؤال مركزي يثيره هذا الموضوع: هل المسلمون كلهم عدول؟

الظاهر أن الجواب بالإيجاب، إلا أن تثبت الجرحة، فنحن نجد في الأثر عن الحبيب الشفيع ﷺ: **«المسلمون عدول بعضهم على بعض»**[29].

ومن المستخلصات أيضا: سمو مقام رسول الله ﷺ وشرف منزلته، مما يفيده ببلاغة وبيان قوله تعالى: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله..﴾ الآية.

---

(27) القرطبي311/16/8، والرازي 118/28/14..

(28) سورة النور4/24.

(29) أخرجه البيهقي في الكبرى 197/10، وابن أبي شيبة في المصنف 172/6، والزيلعي في نصب الراية 81/4، والعجلوني في كشف الخفا 290/2، والدارقطني في السنن 207/4.

ومنها أن من أكبر النعم التي أنعم بها الله الكريم جل شأنه على الإنسان لو تأمل المتأمل: تحبيبه عز وجل الإيمان إليه وتزيينه في قلبه، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إليه، حتى يصبح المؤمن إذا آمن وتفكر أرشد الخلق بعد أصحاب رسول الله ﷺ، وفي ذلك ما يرد على القدرية والإمامية وغيرهم، إذ في تحبيب الإيمان للناس وتكريه الكفر لهم دليل على أنه سبحانه خالق الخلق وخالق أفعال الخلق وخالق صفاتهم ومقدر اختلاف ألسنتهم وألوانهم، متفرد بالخلق لا شريك له، هو الخلاق العليم، وتبارك الله أحسن الخالقين. وقد جاء ما ذكره جل جلاله في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذي (حبّب)..(وزيّن).. (وكرّه).. جاء موضحا في آيات كثيرة مصرح فيها بأنه سبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كقوله عز وجل: ﴿من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا﴾[30]، وقوله تعالى: ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه﴾[31]، وقوله تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾[32]، وقوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾[33]، والآيات بمثل هذا كثيرة.

ومنها التحسيس بالفرق بين الكفر والفسوق والعصيان من جهة، واعتبارها من جهة أخرى في مقابلة الإيمان الكامل، لأن

(30) سورة الكهف 17/18.
(31) سورة الإسراء 97/17.
(32) سورة الأعراف 178/7.
(33) سورة الشمس 87/17.

الإيمان الكامل المزين هو أن يجمع التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان.

في محراب الآيات:

الإعلام ووسائل الاتصال والتواصل بمختلف أصنافه وأشكاله وأساليبه وأدواته ووسائطه وأوساطه الفردية والثنائية والعامة، الرسمي منها والشعبي، كل ذلك أحوج ما يكون لهذه القاعدة الأساسية الهامة في نقل الأخبار، ونشر الأخبار، وتقبل الأخبار، وتفعيل آثار الأخبار، على الأفراد والجماعات والدول والأمم والشعوب. على الجميع أن لا يقبلوا من الأخبار التي تنقل إليهم ولا يعملوا بمقتضاها إلا بعد التثبت والتأكد وتبين الصحة والصواب وتحري الصدق والحقيقة، كراهية أن يصاب الأفراد بسوء، أو تظلم جماعة بوشاية، أو تحدث عداوة بكذبة، كان الناس في غنى عن الوقوع في شيء من ذلك بدون موجب ولا مقتض إلا قالة سوء، أو فرية باطل قد يريد صاحبها جلب مصلحة لنفسه أو دفع مضرة عنه، أو تريد جريدة تزلفا لجهة أو كسب ربح وانتشار، أو قناة إفسادا لعقيدة، أو محطة نشر رذيلة.

وحتى الخواطر ينبغي التأني في إظهارها ونشرها أو تفعيلها، فإن جاءت خاطرة سوء بنبأ سوء فليتبين المرء وليتثبت ولا يبادر بإظهارها خشية أن يصيب قوما بجهالة، أو يُظن به السوء أو يقع في الغيبة فيصبح نادما على ما فعل.

والمنافق قلبه على طرف لسانه، إذا خطر فيه شيء نطق به، فهو هالك أو مهلك؛ والمؤمن لسانه من وراء قلبه، إذا خطر شيء نظر فيه

ووزنه بميزان الشرع والحكمة، فإن كان فيه مصلحة نطق به وإلا رده وكتمه.

ولقد بين لنا رسول الله ﷺ، وهو المبين للقرآن، ما نفعل وما نذر ظاهرا وباطنا، فالأولى اتباع سنته الرشيدة والسير على نهجه القويم المستمد من الوحي، واجتناب الخروج عن أمره، ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[34]، وفي الحديث الصحيح: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فاتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**»[35]، فإذا اتبعنا سنته واجتنبنا عصيان ما يأمر به فلا نرى بإذن الله عز وجل إلا ما يسر ويبهج ويفضي إلى الأمن والراحة، فضلا من الله ونعمة، فلله الحمد والمنة، وله الشكر دائما على فضله وحلمه.

---

(34) سورة النور 61/24.

(35) أخرجه البخاري ومسلم وابن حبان في صحاحهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

4

إصلاح ذات البين واجب والعدل أساس المحبة والأخوة سبيل الرحمة

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(10).

مدخل :

كتب أفلاطون (الجمهورية) منذ أزيد من 24 قرنا[1]، لكن هذه الـ(الجمهورية) ظلت منـزوية في عالم المثال عبر العصور والأزمان، بعيدة عن أرض الواقع وحياة الإنسان؛ وكتب الفارابي (آراء أهل المدينة الفاضلة) منذ أزيد من عشرة قرون[2]، فاقترب من الواقع

(1) عاش الفيلسوف اليوناني الشهير (أفلاطون = Platon) بين سنتي 430 و347 قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

(2) عاش الفيلسوف المسلم أبو نصر الفارابي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (ت339هـ/950م).

ولامسه دون أن يدرك عمق الحياة العملية للمواطن الإنسان الحي المتصرف يوميا بالتحرك البشري الفطري؛ وكتب غيرهما في وصف المدن أو اقتراح الجماعات أو الشعوب المتساكنة والمتعاملة والمتواصلة؛ ولكنّ أحدا لم يستطع رسم معالم مجتمع متكامل بحق متواصل بمودة، متعارف بتلقائية، متواد بصدق. وكان على الإنسانية أن تتأمل في الوحي الذي يرسم المعالم العملية والحقيقية والواقعية لحياة هذا الإنسان الذي احتار في كنهه المفكرون، وصرح في شأنه المصرحون بأنه (الإنسان ذلك المجهول!!)[3].

الوحي كلمة الإله الكامل، وحكم الله الخالق، وتشريع الرب القائم المدبر الرقيب العالم القادر المريد..

الوحي توجيهٌ حكيمٌ رصين قاصد مناسب لطبيعة المقصود بالخطاب المهيأ لتحمل الأمانة والإحساس بالمسؤولية شخصيا فرديا، واجتماعيا بيئيا، وإنسانيا بشريا، وكونيا عالميا..

الوحي في صيغته النهائية (القرآن الكريم، والسنة النبوية) متضمن لمنهج الكمال والتكامل والفضل والتفاضل والعيش والتعايش، بحق وواقعية وفائدة ورسالية.

وسورة الحجرات ـ وهي قطعة من هذا الوحي ـ تتناول بعد التمهيد العلاقة بين الإنسان وبين ربه وهاديه، وتأخذ الطريق نحو لفت انتباه الإنسان إلى مكوناته الإنسانية المؤلفة لمحمود العلاقة

(3) اِقرأ إن شئت كتاب (L'homme cet inconnu , Paris 1975): الذي قضى مؤلفه (Alexis Carrel) معظم حياته في المختبرات العلمية يدرس الكائنات الحية، وقضى قسطا منها في النظر في العالم الفسيح يلاحظ الإنسان ويحاول فهمه دون أن يدعي معرفة أي شيء خارج عن الملاحظة العلمية: انظر مقدمة الكتاب.

بين بعضه وبين بعض، ونحو تقرير حقائق واقعية هي وحدها التي تنتج الألفة التلقائية بين الناس، والتعايش السليم بين الشعوب، ونظام التواصل الودود بين الأمم والحضارات، وتنتج كل خير وصلاح، وتساعد على السير في مضمار الترقي في محبة، والتطور في مودة، والاستقرار على كرسي الإنسانية المستعلي عن الحيوانية والجهالة، والفردانية والأنانية والضلالة.

فهي تحث الإنسان في البداية على التبين قبل قبول الأقاويل التي تُنبت في الأذهان أحاسيس الحقد والكراهية والفرقة والتربص ونزوع العدوانية والإذاية والتشاكس والندم، وتذكر بأن الوحي منطلق الفكر السديد والسلوك الرشيد والتعامل المؤلف بين الناس؛ ثم هي في هذه الآيات البينات تزرع بذور التآزر في الحق والخير، وترسم حدود القبول للتصرفات السليمة، والسلوكات الرشيدة، التي لا محل فيها لزيغ ولا لتعدٍّ، ولا يُسكَت فيها على ظلم ينخر الجسم المتكامل للشعوب، ولا على بغي ينبت الشر والحقد والكراهية في النفوس؛ وإذا نبت شيء من ذلك في نفوس الأفراد أو نشأ في صفوف المجتمع، فإنها تدعو إلى اجتثاثه ومواجهته تطهيرا للبيئة الإنسانية مما يعكرها، وتنظيفا للمجتمع الإنساني مما يكدره، باستخدام اللين والموادعة والمصالحة إن نفعت، ومواجهة الباطل وأهله، ومناوأة الطغيان وشره، ومقاتلة البغي وظلمه إن اقتضى الأمر ذلك.

أسباب النزول:

روي أن هاتين الآيتين نزلتا في حَيَّيْن من الأوس والخزرج كان بينهما قتال؛ وقيل بل في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة،

يقال لهما (سمير)، و(حاطب) وكانا سببا في اقتتال بين الأوس والخزرج؛ وقيل في امرأة من الأنصار يقال لها (أم زيد) أو (أم بدر) كانت تحت رجل من غير الأنصار اسمه (عمران)، فتخاصمت مع زوجها لما حبسها عن زيارة قومها، فنشب قتال بين القومين؛ وقيل سببه ما وقع بين المسلمين والمتحزبين منهم مع عبد الله بن أبي بن سلول حين مر به رسول الله ﷺ وهو متوجه إلى زيارة سعد بن عبادة في مرضه[4].

القراءات:

في الآيتين قراءات مختلفة كلها واردة لكن في بعضها شذوذ:

فقد قرأ ابن أبي عبلة: (اقتتلتا) على لفظ الطائفتين، وقرأ عبيد ابن عمير: (اقتتلا)، والآخرون: (اقتتلوا).

وقرأ عبد الله: (حتى يفيئوا إلى أمر الله، فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط)؛ وعن أبي عمرو: (حتى تفيي) بغير همز، ووجهه أن أبا عمرو خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلسة فظنه قد طرحها.

وقرأ يعقوب بن عامر والحسن ـ بخلاف عنه ـ وابن سيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والجحدري: (بين إخوتكم) بالتاء على الجمع؛ وقرئ (بين إخوتكم وأخواتكم).

(4) انظر روايات أسباب نزول الآيتين في: الطبري81/26/11، والبيضاوي 416/2، وابن كثير 150/13، والقرطبي 315/16/08، وفي الكشاف 562/3، والدر المنثور 560/26/7، والمحرر الوجيز 140/15، والبحر المديد 164/4، وفتح القدير 655، وغيرها.

وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن وابن سيرين والجحدري وحماد بن سلمة: (بين إخوانكم) وهي حسنة، لأن الأكثر من جمع الأخ في الدين ونحوه من النسب إخوان، والأكثر في جمعه من النسب إخوة وإخاء.. وقد تتداخل هذه الجموع في كتاب الله تعالى، فمنه قوله تعالى هنا: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾، وقوله سبحانه: ﴿أو بيوت إخوانكم﴾[5] فهذا جاء على الأقل من الاستعمال. وقرأ الجمهور من القراء (بين أخويكم) وذلك رعاية لحال أقل عدد يقع فيه القتال والتشاجر والجماعة متى فصل الإصلاح فإنما هو بين رجلين رجلين. وقرأ الباقون: (أخويكم) بالياء على التثنية.

من أجل التبيُّن والبيان:

حذر الله عز وجل المؤمنين في أول السورة من النبأ الصادر من الفاسق، ثم أشار سبحانه وتعالى إلى ما يلزم من الآثار السلبية السيئة لانتشار الخبر الكاذب، استدراكا واستصلاحا، إن اتفق أن بنى الناسُ على الخبر الكاذب ما يوقع بينهم، وآل الأمر إلى اقتتال طائفتين من المؤمنين، فليزيلوا ما أحدثه ذلك الفاسق، وليصلحوا بينهما.

فهاتان الآيتان تعالجان قضية فقهية واسعة، تناولتها كتب الثقافة الإسلامية، بما فيها كتب التفسير وكتب الفقه، بغير قليل من البسط والتحليل والتفصيل، لأنها تتناول حكم معالجة الخلافات التي قد تنشب بين المسلمين وتصل بهم إلى حد المواجهة بالسلاح

(5) سورة النور 24/59.

والتقاتل. ومعلوم أن الإسلام يرفض رفضا تحريميا أن يتقاتل المسلمون، بل يحرم أن يحمل المسلم السلاح على أخيه المسلم، أو حتى يخيفه أو يفزعه، كما تدل على ذلك النصوص الثابتة الصريحة في تحريم ذلك من الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿وما كان لمومن أن يقتل مومنا، إلا خطأ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾[6]، ومثل قوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر إن**»[7]، وقوله ﷺ «**إذا المسلمان حمل أحدهما على أخيه السلاح فهما على حرف جهنم، فإذا قتل أحدهما صاحبه دخلا جميعا. قيل: يارسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه**»[8]، وقوله ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يروع مسلما**» أي يخيفه ويفزعه[9].

فما الحل إذا حصل خلاف عميق بين مسلمين أو أكثر، ووصل الأمر إلى حد المواجهة المسلحة بين الإخوة في الدين؟؟ والكل يعلم أن الخلاف دب إلى الأمة منذ عهودها الأولى ونشب بين فضلاء الصحابة وعلية القوم فاعتبر ذلك جريا على سنة الله في خلقه، ووقف الناس على اختلاف مراتبهم وأقدارهم ومعارفهم مواقف مختلفة، وكانت حروب طاحنة تحرج من خوضها بعض الفضلاء لكن بعضهم خاضها عن قناعة واعتقاد أنه يخوض حربا

---

(6) سورة النساء 4/92 – 93.

(7) متفق عليه.

(8) متفق عليه.

(9) أخرجه أبو داود، والطبراني.

مشروعة، واضطر البعض إلى الانخراط فيها اضطرارا، بحكم موقعه العلمي أو الاجتماعي أو السياسي؟

تأتي هاتان الآيتان: التاسعة والعاشرة من سورة الحجرات، لتبين الحكم الحكيم المتدرج في مواجهة الخلافات بين المسلمين المومنين، فتقرران ضرورة تدخل الإمام أو أهل الرأي والمشورة لإصلاح ذات البين بالطرق السلمية والودية، وبمنهج العدل والإنصاف بعيدا عن التحيز والجور، واتقاء لكل عوامل إذكاء الفتن، طمعا في انقياد الطرفين أو الأطراف المتنازعة إلى حكم عادل يحقن الدماء ويحفظ المصالح ويمنع الحروب والكوارث، فما إن يتبين الصواب والحق للمومن حتى ينقاد له بطواعية وتلقائية ورضى، إذ الأصل في المجتمع الإسلامي أن الإيمان وازع مخيم على حياة أبنائه وأنه يتحاشى الفتن بكل الوسائل، وأنه يقوم على المودة والمحبة والتضحية والصفاء والتسامح كما يرسخ ذلك قوله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة**»[10].

و﴿**طائفتان**﴾: مرفوع بإضمار فعل تقديره: وإن اقتتلت؛ والطائفة من الشيء القطعة منه. والطائفة من الناس: الجماعة، وقد تقع على الواحد وعلى الاثنين وعلى الأكثر من ذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الواحد فما فوقه طائفة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة**﴾[11]. فالحكم في هذه

(10) رواه الامام مسلم عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ: بالنووي 372/16/8، الحديث 2580.

(11) سورة التوبة 123/9.

الآية في الأفراد وفي الجماعات واحد؛ واللفظ محمول على المعنى دون اللفظ، ولذلك قال تعالى: ﴿اقتتلوا﴾ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. ومن ثم رأى البعض أن يشهد حد الزناة رجل واحد، والله عز وجل يقول: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾[12].

﴿اقتتلوا﴾: القياس فيه أن يقال: (اقتتلتا) كما قرأ ابن أبي عبلة، أو(اقتتلا) كما قرأ ابن عمير، والجمع فيه باعتبار المعنى دون اللفظ كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، لأن كل طائفة جمع، ومثله قوله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا﴾[13].

﴿فأصلحوا بينهما﴾: أي بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى، أو إلى كتاب الله ليحكم لهما أو عليهما. وقد خص الاثنان بالذكر في (بينهما) دون الجمع، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين. وقيل المراد بالأخوين الأوس والخزرج[14].

ثم تنص الآيتان على المرحلة الثانية، وهي مواجهة الفئة الباغية بالقتال إذالم ترتدع عن البغي والغي وترجع إلى الحق والقسط، حتى ترجع وتذعن وترضى بحكم الله ورسوله ﷺ: ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ فقتال الفئة الباغية في كل عصر واجب ما قاتلت، فإذا كفت أيديها عن الحرب تركت. عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه بعد أن

---

(12) سورة النور 2/24.

(13) سورة الحج 19/22.

(14) الكشاف 363/3.

اعتزل قال: «**ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدته من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل**»[15].

وتأتي السنة فتؤكد حكم الكتاب وتزيد هذا الحكم بيانا بتفصيل شروط معاملة الفئة الباغية من المؤمنين إذا تولت: فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يا ابن أم عبد، هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: لا يُجهَزُ على جريحها، ولا يُقتَل أسـيرُها، ولا يُطلَب هاربُها، ولا يقسَم فيئها**»[16]؛ فالأمر يتعلق بإخوة، وليس كمثل الحال مع غير المسلمين، فالمنطلقات والغايات والنتائج والحكم والمعاملة كل ذلك يختلف.

﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى﴾: البغي: الاستطالة والظلم والفساد وإباء الصلح، أي إذا تعدت إحدى الطائفتين ولم تتأثر بالنصيحة ولم تجب إلى حكم الله وكتابه وطلبت العلو بغير حق..

﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾: أي حتى ترجع إلى كتابه أو حكمه وما أمر به من الصلح وإزالة الشحناء، وتسمع للحق وتطيعه، أو ترجع إلى طاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر، لقوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[17]، أو إلى أمر الله بالتقوى، قال الرازي: «**فإن من خاف الله حق الخوف لا يبقى له عداوة إلا مع الشيطان، كما قال تعالى:**

---

(15) الكشاف 563/3؛ 564.

(16) أخرجه ابن عدي في الضعفاء، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في السنن وضعفه؛ وابن عساكر عن ابن عمر. ينظر كنز العمال 450/3 ح 7397. وينظر حديث: «حكم الله في الفئة الباغية» ص 91.

(17) سورة النساء 58/4.

﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾»[18]. وروى الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أنصر أخاك ظالما أو مظلوما. قلت: يارسول الله هذا نصره مظلوما، فكيف أنصره ظالما؟ قال: تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه**»[19].

ويقتضي وجود اقتتال بين الطوائف من الناس أن تكون هناك طائفة باغية، وطائفة مبغي عليها، وفئة صالحة تتصدى لرأب الصدع ورتق الفتق وإصلاح ذات البين وإيقاف الشر والفتنة والبغضاء. وأولى مراحل التصدي لذلك ومعالجته ما تفيده الآيتان بدءا من وجوب العمل على إصلاح ذات البين انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ على أن يتصدى لعملية إصلاح ذات البين من هم من أهل الرأي والنظر والعلم والحكمة والخبرة والثقة، لضمان الرأب.

ولكن قد يلتحم القتال بين المسلمين لشبهة دخلت عليهم وكلهم عند نفسه محق، فواجب الحكماء أن يزيلوا الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة ويطلعوا الطوائف المتقاتلة على مراشد الحق، فإن ركبت تلك الطوائف متن اللجاج ولم تعمل على ضوء ما هديت إليه ونصحت به من اتباع الحق بعد وضوحه فقد لحقت بالفئة الباغية، ووجب محاربتها حتى ترتدع وتنقاد للحق.

ولقد قال في الآية الأولى: ﴿فأصلحوا بينهما﴾ ولم يذكر العدل، وقال في الآية الثانية: ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا﴾ فقرن

---

(18) مفاتيح الغيب 127/28، والآية من سورة فاطر 6/34.

(19) الجامع الصحيح، كتاب المظالم، باب «أنصر أخاك ظالما أو مظلوما» بفتح الباري 98/5: ح 2443، 2444، 6952.

الإصلاح بالعدل والإقساط. ذلك أن المراد بالاقتتال في الأول أن يقتتلا باغيتين معا أو راكبتي شبهة، وفي هذه الحالة لا ضمان على أحدهما للآخر فيما تلف أو درس بسبب الحرب؛ والمراد بالاقتتال في الثانية أن تكون هناك فئة باغية ظالمة، فعلى الظالم أن يتحمل تبعة ظلمه ويضمن ما كان سببا في إتلافه. وأيتهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاح ذات البين وتسكين الدهماء بإرادة الحق والمواعظ الشافية ونفي الشبهة إلا إذا أصرتا فحينئذ تجب المقاتلة كما تقدم.

﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما﴾: أي إذا رجعت الفئة الباغية عن البغي وأقلعت عن القتال، فاحملوا الفئتين معا على الإنصاف بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى، ولا تتوقفوا في عملية الإصلاح بمجرد أن يتركا بعضهما، احترازا من أن يكون بينهما قتال في وقت آخر.

﴿بالعدل﴾: هذا تقييد للإصلاح بالعدل لأن الإصلاح عامة مظنة الحيف، وقليل من يتقيد بالعدل فيه. وقد أكد ذلك بقوله:

﴿وأقسطوا﴾: فإما أن يكون المراد: لا تقتتلوا، وإما أن يكون المراد: اعدلوا. والإقساط: الحكم بالعدل وإزالة القَسط ـ بالفتح ـ وهو الجور، والفعل منه قَسَطَ فهو قاسط والقاسط: الجائر؛ وأما القِسط ـ بالكسر ـ فهو العدل والفعل منه أَقْسَطَ وهمزته للسلب: أي أزال القَسط أي الجور كما قدمنا. والمعنى ـ والله تعالى أعلم ـ اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالعدل. وقد أخرج الإمام مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول

الله ﷺ قال: **«إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن بما أقسطوا في الدنيا»**[20].

﴿إن الله يحب المقسطين﴾ أي العادلين المحقين؛ ومحبة الله لخلقه أن يحمد فعلهم ويعصمهم من الزلات ويكفر عنهم السيئات ويجازيهم من فضله بالخيرات؛ وقد ورد في الحديث القدسي: **«.. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»**[21].

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾: الإخوة في اللغة: جمع الأخ من النسب، والإخوان جمع الأخ من الصداقة، والأُخوّة المقصودة هنا هي الأخوة في الدين والحرمة لا في النسب، فالمؤمنون منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية؛ ويقال إن أخوة الدين أثبت وأعظم وأقوى من أخوة النسب، لأن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب؛ وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره. التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه**

(20) أخرجه أحمد في المسند 159/2، وذكره ابن كثير في تفسيره 152/13.

(21) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع، عن أبي هريرة رضي الله عنه، الحديث 6502.

المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»[22] فالمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خلص لذلك متمحضون قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع.

﴿**فأصلحوا بين أخويكم**﴾: فعليكم أن تجتهدوا في التأليف بين المؤمنين لتحقيق الأخوة، وتبادروا إلى قطع ما يقع من ذلك إن وقع وحسمه. والفاء فيه للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح. وقيل: المراد بالأخوين: الأوس والخزرج، أو الطائفتان الأخوان، لأن لفظ التثنية يرد ويراد به الكثرة كما في قوله تعالى: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾[23]. قال أبو عبيدة: «**أي أصلحوا بين كل أخوين فهو آت على الجميع**»[24]، أي أصلحوا بين كل مسلمين تخاصما، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم.

﴿**واتقوا الله**﴾: في مخالفة حكمه والإهمال فيه أو في جميع أموركم، ما تأتون وما تذرون، التي من جملتها الإصلاح بين الناس.

﴿**لعلكم ترحمون**﴾: رجاء أن ترحموا على تقواكم، لأن التقوى تحملكم على التواصل والائتلاف، وهو سبب نزول الرحمة؛ وفي هذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

---

(22) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم.. ح 2564.

(23) سورة المائدة 66/5.

(24) تفسير القرطبي 315/16/8.

المستخلصات:

سمى الله عز وجل الطائفتين مؤمنين، مع اقتتالهما، وهو دليل على أمرين:

الأول أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، خلافا لما يقوله الخوارج والمعتزلة ومن نحا نحوهم؛

والثاني أن البغي لا يزيل صفة الإيمان عن الباغين ما أقروا بالشهادتين.

ولقد تحقق مضمون الآيتين في واقع الأمة الإسلامية إبان الفتنة الكبرى التي شب أوارها بين الصحابة أواخر عهد الخلافة الراشدة، وكان رسول الله ﷺ أنبأ به في حياته لما خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»[25]، فكان كما قال ﷺ إذ أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق لما تنازل الحسن بن علي عن الخلافة للأمويين حقنا للدماء بعد الحروب الطويلة والوقائع المهولة.

أما الأحكام الفقهية المستخلصة من الآيتين فقد أسهب فيها المفسرون كالقرطبي والرازي وابن عربي وغيرهم، وفصلوا القول في أسئلة تتعلق بالقتال بين المسلمين:

(25) من حديث أبي بكرة في كتاب الصلح من صحيح البخاري، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما: «إن ابني هذا سيد..» 306/5: ح 2704.

ـ ما هي أحكام قتال الفئة الباغية من المسلمين؟

ـ وهل يجوز القتال أصلا بين المسلمين بعضهم مع بعض؟

ـ وما هي الأحوال التي يجوز فيها القتال والتي لا يجوز؟

ـ ومن يعلن ذلك ويعد له أو يحرض عليه؟

ـ وماذا يترتب على هذا القتال إن حصل من نتائج الحروب كسبي النساء ورق الأطفال ومتابعة الفارّ المولي وضمان ما أتلف بسبب القتال؟

ـ وهل يتوارث المتقاتلان المؤمنان إن قتل أحدهما صاحبه؟

ـ وكيف ينبغي أن يوقف من الصحابة رضوان الله عليهم فيما حصل منهم وحدث بينهم؟

وخلاصة ما في ذلك أن مدافعة الفئة الباغية المعلوم بغيها متوجه في كل حال، وفي الآيتين الموضوع دليل على وجوب قتالها إذا لم تستجب لدواعي الصلح وإصلاح ذات البين، فقوله تعالى: ﴿فقاتلوا التي تبغي﴾ أمر صريح بالقتال؛ وهو على الكفاية، ولذلك تخلف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن الدخول في حروب الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية،كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، ومحمد بن مسلمة وغيرهم.

وقد احتج المعارضون بقوله ﷺ: «**قتال المؤمن كفر**»[26]، ولكنهم محجوجون بأمرين:

(26) حكاه القرطبي في تفسيره (317/16/8) عن الطبري، ولم أجده عند الإمام الطبري في (جامع البيان) عند تفسيره للآية.

أولهما هذه الآية من سورة الحجرات، فلو كان قتال المؤمن الباغي كفراً لكان الله تعالى قد أمر بالكفر، تعالى الله عن ذلك.

والثاني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قاتل من امتنع من أداء الزكاة مع تشبثه بالإسلام ومع وجود كبار الصحابة وخيارهم معه؛ كما احتج الإمام الطبري لمشروعية قتال الفئة الباغية فقال: «**لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لما أقيم حد ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبي نسائهم وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله ﷺ: «خذوا على أيدي سفهائكم»**»[27]؛ كما اعتبر القاضي أبو بكر ابن العربي هذه الآية أصلا في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله في شأن عمار بن ياسر رضي الله عنه: «**تقتل عمارا الفئةُ الباغية**»[28]، وقولِه ﷺ في شأن الخوارج: «**يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة**»[29].

واختلف في الفتن التي تقع بين المسلمين على قولين:

أحدهما أنه لا يجوز النهوض في شيء منها ولا القتال: وهذا مذهب سعد بن أبي وقاص وأبي ذر وجماعة من الصحابة، وحجتهم

(27) القرطبي316/16/8، والحديث أخرجه أبو داود والطبراني.

(28) رواه الترمذي في الإيمان، ح 2634، وأحمد: المسند 178/1.

(29) أحكام القرآن، والحديث أخرجه البخاري في المظالم، ح 2480 ، وأبو داود في السنن، ح 4772، والترمذي في الديات، ح 1421.

حديث «**قتال المسلم كفر**»[30]، وحديث الأمر بكسر السيوف في الفتن. ومقتضى هذا القول أن من دخل على من اعتزل الفرقتين منزله يريد نفسه أو ماله فعليه دفعه وإن أدى ذلك إلى قتله، لحديث «**من قُتل دون نفسه وماله فهو شهيد**»[31].

والقول الثاني أن النهوض فيها واجب لتُكَف الفئة الباغية، وهذا مذهب علي وعائشة وطلحة وأكثر الصحابة، وهو مذهب مالك وغيره من الفقهاء، وحجتهم هذه الآية. وقد نشأ عن هذا القول اختلاف في مع مَن مِن الفئتين يكون النهوض؟ على ثلاثة أقوال: فقيل مع السواد الأعظم، وقيل مع العلماء، وقيل مع من يُرى أن الحق معه. ويقول ابن عجيبة: إذا وقعت الحرب بين القبائل فمن تعدت تربتَها إلى تربة غيرها فهي باغية يجب كفها، وإذا وقعت بين الحدود فالمشهور النهوض، ثم يقع السؤال عن السبب، فمن ظهر ظلمه وجب كفه، فإن أشكل الأمر فالإمساك عن القتال أسلم.

أما في الصلح فمن العدل الذي تأمر به الآية الكريمة ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا﴾ ألا تطالب الفئات بما جرى بينهم من دم ولا مال، فإنه تلَفَ على تأويل؛ وفي طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستشراء في البغي، وهذا أصل في المصلحة.

وأما بعد الحرب والمقاتلة المأمور بها في قوله تعالى: ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ فيختلف الأمر عنه في حال الحرب بين المسلمين وبين غيرهم، فإن رسول الله ﷺ يقول:

---

(30) أخرجه الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما، وانظر مجمع الزوائد 243/6.

(31) القرطبي 320/16/8، والألوسي 151/26/9.

«حكم الله فـي الفئة الباغية أن لا يجهز على جريح، ولا يطلب هارب، ولا يقتل أسير»[32]، وقد طبق ذلك الصديق رضي الله عنه في حرب مانعي الزكاة، فأمر ألا يُتبع مُولّى، ولا يُجهز على جريح، ولا تحل منهم أموال؛ بخلاف الواجب في الكفار.

وإن حكمة الله تعالى في الحرب التي نشبت بين الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل، إذ كانت أحكام قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان الرسول ﷺ وفعله. وقد عبر موقف علي ابن أبي طالب رضي الله عنه خلال الفتنة الكبرى عن حكم الشرع في الفئة الباغية، حيث قيل له كرم الله وجهه: **«أمشركون أهل صفين والجمل؟ قال: لا، من الشرك فروا. قيل: أفمُنافِقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا. قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا»**[33]. وأما التهيؤ لقتالها فمهمة ولي الأمر؛ وذهب القرطبي إلى أن لا خلاف بين الأمة في أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة[34]. وإذا خرجت على الإمام العدل خارجة باغية ولا حجة لها قاتلهم الإمام بالمسلمين كافة أو بمن فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فإن أبوا من الرجوع والصلح قوتلوا بالشروط نفسها والأحكام نفسها المقررة في مقاتلة الفئة الباغية: فلا يقتل أسيرهم، ولا يتبع مدْبِرُهم ولا يُذَفَّف على جريحهم، ولا تسبى ذراريهم ولا تباح أموالهم.

---

(32) القرطبي 316/16/8، والحديث رواه الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهو في مجمع الزوائد 243/6، ويراجع حديث «يا ابن أم عبد..» ص 82.

(33) القرطبي 323/16/8 ـ 324.

(34) القرطبي 318/16/8.

أما ما أتلفته المعارك بين الفئة الباغية وبين الفئة العادلة من دم أو مال أو متاع، فالرأي أنهم لا يؤاخذون بذلك ولا يضمنون منه شيئا ولا يقسم فيها فيء، وأما ما بقي قائما فيرد بعينه، وهذا فيمن خرج بتأويل يسوغ له. وقال أبو حنيفة: يضمنون، ووجهه أنه إتلاف بعدوان فيلزم الضمان؛ وللشافعي قولان؛ والمعول في ذلك عند المالكية أن الصحابة رضوان الله عليهم في حروبهم لم يضمنوا نفسا ولا مالا؛ وهم القدوة[35]. ونسب القرطبي إلى الزمخشري أنه إن كانت الفئة الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنت بعد قبول الصلح والفيء إلى الحق ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن، إلا عند محمد بن الحسن فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت. وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنته عند الجميع؛ غير أن عبارة الزمخشري تقول: «**وأما الضمان فلا يتجه، وليس كذلك إذا بغت إحداهما فإن الضمان متجه على الوجهين**»[36].

ومن المعلوم أنه لا يرث قاتل عمدا عدواناً مقتوله على كل حال، وكذلك الحكم إذا قتل العادلُ الباغيَ أو الباغي العادلَ وهو وليه: لم يتوارثا، وشذ رأي يقول: إن العادل يرث الباغي قياسا على القصاص.

وإذ تحيل الآيتان موضوع هذه الدراسة بمقتضى الدلالات السياقية والأحكام المستخلصة على ما عرف في تاريخ الإسلام بالفتنة الكبرى بين صحابة رسول الله ﷺ، وما قد يحدث بين

(35) القرطبي 320/16/8.

(36) الزمخشري 3 /564 والقرطبي 320/16/8.

المسلمين المؤمنين على امتداد الزمن من الخلافات والفتن، فلا بد من استحضار أنه يجوز في حق أي أحد من الناس الخطأ والغفلة والزيغ؛ أما جيل الصحابة فله خصوصياته، ولا يجوز أن ينسب إلى أحد منهم خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تُعُبِّدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة، ولدعوة النبي ﷺ إلى محبتهم، ونهيه عن سبهم، وإخباره أن الله عز وجل غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم؛ فلا يجوز لعنهم ولا البراءة منهم ولا تفسيقهم ولا إنكار فضائلهم وجهادِهم وعظيمِ غَنائهم في الدين رضي الله عنهم. وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال: «**قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا؛ ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ونتبع ما اجتمعوا عليه ونقف عند ما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأيا منا، إذ كانوا غير متهمين في الدين**»[37].

في التذوق الفني للآيتين:

تشتمل الآيتان الكريمتان على مجموعة من الصور التعبيرية البديعة، والدلالات المعنوية اللطيفة التي تسمو بفنية التعبير القرآني وتتربع به على كرسي الروعة الفنية في الدقة والبيان تعبيرا وأداء، وإبلاغا وتأثيرا.

فقد عبرت الآية بـ﴿طائفتان﴾ وليس بـ(فرقتان) تحقيقا لمعنى التقليل، باعتبار أن الاقتتال بين المسلمين قليل الوقوع أو هذا هو

---

(37) ابن كثير 321/3.

الشأن فيه؛ ذلك أن الطائفة دون الفرقة، ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾[38].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين﴾ ولم يقل (منكم)، مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ﴾، وذلك تنبيها على قبح الاقتتال وإبعادا لهم عنه؛ كما أنه تعالى لم يقل: (وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين)، مع أن اتصال (إن) بالفعل أولى، وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال، فيتأكد معنى النكرة المدلول عليه بلفظ (إن)، وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضي أن لا يقع القتال منهما.

وذكر سبحانه العدل في قوله عز وجل: ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ ولم يذكره في ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال نفسه، وذلك يكون بالنصيحة والتوجيه، أو بالتهديد والزجر والتعنيف؛ والإصلاح ههنا بإزالة آثار القتل بعد اندفاعه من تحمل التبعات، وضمان المتلفات ـ عند القائلين بالضمان ـ وهو حكم، فاقتضى الأمر بتحري العدل، فكأنه قال: واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما، لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿وأقسطوا﴾ تعميم بعد التخصيص في قوله: ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ أي أصلحوا بالعدل في الحكم بين

---

(38) سورة التوبة 123/9.

الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين، وأقسطوا في كل أمر مفض إلى شرف درجة وأرفع منزلة وهي محبة الله.

ومن بلاغة التعبير استعمال أسلوب الشرط في قوله تعالى: ﴿فإن بغت﴾ لأنه من ناحية المعنى يفيد الندرة وقلة وقوع هذا الأمر بين المسلمين المؤمنين، أو المفترض المقدر أن لا يحدث إلا نادرا.

ومنها تعليل الأمر بالإصلاح وتقريره في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾، ولذلك كرره مرتبا عليه بالفاء فقال: ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾؛ وأظهر ما كان يمكن أن يضمر (أخويكم) مضافا إلى المأمورين، للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والحض عليه؛ وخص الاثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق، ولإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولى، لتضاعف الفتنة والفساد فيه.

ومنها أسلوب التتميم في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ بقصد الإرشاد، وذلك لأنه لما قال: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ أمكن لظان أن يظن أو يتوهم أن الحكم متعلق باختلاف الجماعات، أما إن كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة، ومن ثم لا يؤمر الناس بالإصلاح، وليس كذلك، فإن الإصلاح واجب بين كل مختلفين من المسلمين قلة كانوا أو كثرة، أفرادا أو جماعات. كما ترشد الآية الكريمة إلى وجوب الإصلاح ولو لم يحدث إلا ما دون الاقتتال كالشتم والسب أو أدنى خلاف.

و(إنما) في الآية للحصر أي لا أخوة إلا بين المؤمنين؛ و(ما) فيها كافة، تكف (إن) عن العمل، ولولا ذلك لقيل: إنما المؤمنين إخوة، على أن (المومنين) اسمها، و(إخوة) خبرها.

ومن البلاغة أيضا الإضمار في قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ تقديره: وإن اقتتل طائفتان، لدلالة المقال عليه.

والتأكيد مرتان في قوله تعالى: ﴿وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾، وقوله سبحانه: ﴿إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم﴾ وذلك لإزالة أي شك أو توهم من نفوس المتلقين، وترسيخ المعنى في أذهانهم.

ومنها أسلوب الترجي، وهو من الإنشاء الطلبي، في قوله تعالى: ﴿لعلكم ترحمون﴾، بمعنى رجاء لكم أن تنالوا بتقواكم رحمة الله.

والآيتان بنيتا بناء منسجما تتنوع فيه الأدوات التعبيرية وتتكامل وتتناسب مع المعاني والمقاصد:

فقد استُعمل فيهما الفعل عشر مرات: الأمر فيها ست، والماضي ثلاث، والمضارع ثلاث؛ والجمل (16)، منها (12) فعلية، و(4) اِسمية؛ وأدوات الربط بين الجمل منها العطف بالواو والفاء؛ وأدوات الشرط (3)؛ واسم الإشارة مرة واحدة؛ والضمائر البارزة (10)؛ وحروف الجر (4')؛ والظروف (3).

في محراب الآيتين:

القرآن الكريم كتاب الله المسطور، فيه أحكام الشرع وتوجيهاته، وفيه أخبار الكون وأوصافه، والإنسان وحياته، والكائنات والظواهر وقواعدها وسننها الفعلية الغريزية منها والمكتسبة؛ والمؤمن بالقرآن يتعامل معه بتفاعل واستجابة ولا يجد في نفسه حرجا من أي

توجيه يجده فيه كان هذا التوجيه إلزاميا أو إرشاديا أو تفضيليا، أو كان تحذيريا مانعا أو تقبيحيا مكرِّها؛ متعلقا بحياته الشخصية الفردية أو بالحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية. وإنما يشعر بقيمة القرآن ويفهمه ويتقبله من سكن قلبه الإيمان واليقين، ونهج فيه نهج القبول والاستجابة والرضا، باعتباره كلام الحق الذي لا ينطق عن الهوى، والوحي الذي ينظم بالحكمة الربانية الحكيمة حياة الإنسان مخلوق الله، في الكون ملكوت الله، استعدادا للجزاء يوم لقاء الله:

- ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾[39].

- ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يومنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد﴾[40]، فهم بعداء عن فضاء القرآن ومجال الاستجابة وفرص الهداية أما المسلم المومن فمهما غفل أو بغى فإنه لا يخرج بغفلته أو بغيه عن الإيمان، وأما المظلوم من الناس فيجب نصرته، وأما الإصلاح بين الناس ففضيلة لا ينبغي الاستهانة بها.

وهاتان الآيتان من هذه السورة جزء من ذلك القرآن، تتناولان موضوعا من موضوعاته وتتعلقان بأمر من الطبيعي جدا أن يحدث بين الناس الذين يتعاملون ويتعاشرون وهم يختلفون في قوى الفهم والإدراك ودرجات الاستعداد للتقبل والاستجابة والانقياد؛ إنهما توجهان الإنسان إلى معرفة المنهج الرشيد الذي ينبغي أن يواجه به

(39) سورة فصلت 41/40 – 41.

(40) سورة فصلت 41/43.

خلافاته التي قد تحدث بينه وبين أخيه الإنسان عامة، ولكن القرآن يخاطب بالدرجة الأولى المؤمنين به المستعدين لقبول توجيهاته، رعاية لمصالحهم، وانتهاجا لنهج القبول بالرأي الآخر وعدم الاعتداد بالرأي الشخصي والتعصب له، وبقبول الإنسان لهذا التوجيه الرباني ولأي توجيه راشد، لكي يعيش سعيدا هنيا مطمئنا. هذا على مستوى الفرد.

أما على المستوى الاجتماعي فالآية توجه الجماعة إلى أهمية التحرك في اتجاه إيقاف العداوة إن ظهرت مخالبها في جسم المجتمع الإنساني، واجتثاث أسباب الخلاف ودواعي الفرقة ومولدات الفتنة والقضاء عليها في المراحل الأولى بالتدخل الحكيم لإصلاح ذات البين ودعوة الطرفين أو الأطراف المتخاصمة إلى الرجوع إلى الله والانقياد لأمر الله ورسوله والتزام الرشد والدعة والألفة؛ وفي المراحل المستفحلة بالتدخل الصارم لإيقاف عدوان المعتدين، وإحقاق حقوق المستضعفين، ونشر ألوية الحق والعدل والمودة بين المتجاورين والمتعايشين.

مع أن الأصل في العلاقة بين جميع مكونات المجتمع الإسلامي في شرع الله وكما يريدها الله جل جلاله وتفوح بها آياته، والرسول الأكرم عليه صلوات الله وسلامه وتزخر بها أحاديثه، هي الأخوة المخلصة الصافية، والمحبة القلبية الصادقة، والمودة الوفية الدافئة، بها يتغلب الناس على الأحقاد النابتة والحزازات الطارئة، وبها تسعد البشرية وتشتغل بالبناء الحضاري وتعمير أرض الله بالخير والحق والمحبة.

والفيء إلى الله حل يقبله كل صادق الإيمان بالله، قوي الإيمان بالقرآن كتاب الله، مخلص الاقتداء بالرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام.

وتقوى الله غاية كل إنسان عاقل يعلم أنه صائر لا محالة إلى المصير المحتوم، الذي يشاهد الناسَ يوميا يتوافدون عليه كرها لا اختيارا، وأنه واقف غدا أو بعده للسؤال عن حياته القصيرة فيم أفناها وقضاها، أفي العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل؛ أم بنقيض ذلك من عمل التائهين الغافلين؟

وما أروعها من خلاصة طيبة، كلها أمل وشفاء ورحمة للإنسان، تختتم بها هاتان الآيتان الكريمتان لتفتح أمام هذا المخلوق المكرم آفاق الأمل الواسع في الحياة الدنيا، والرجاء الأوسع الأفسح في الآخرة، ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾[41]، إنها رجاء الرحمة من الرب الرؤوف الرحيم، لعباده المومنين أجمعين: ﴿لعلكم ترحمون﴾، هي ظلال الرحمة الوارفة التي يهفو إليها قلب الإنسان الذي تتجاذبه أطراف الحياة وأهوالها وطباع الناس واختلافاتها على امتداد حياته، فإذا فتحت له أبواب الرحمة والأمل هُرِع إليها مستجيبا لأمر ربه، ملبيا نداءات كتابه ومنهج نبيه الذي وصفه الله عز وجل بأنه ﴿بالمومنين رؤوف رحيم﴾[42].

---

(41) سورة آل عمران 3 /30.

(42) سورة التوبة 129/9.

والمؤمن الصادق لا يجد حرجا في قبول توجيهات الرب الحكيم عبر القرآن الكريم، وتوجيهات الرسول الأمين ﷺ عبر السنة والسيرة النبوية الطاهرة، مصداقا لقول الله عز وجل في محكم التنزيل وتنفيذا له: ﴿فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[43].

(43) سورة النساء 64/4.

5

علاج ثلاثة أمراض اجتماعية ناخرة

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب، بيس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾(11).

مدخل :

أشارت الآيات البينات السابقات من هذه السورة الكريمة إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله عز وجل، وكيف ينبغي أن يتأدب مع رسول الله ﷺ، وكيف ينبغي أن يتعامل مع الفاسقين الذين يخالفون أمر الله ورسوله أو يتصرفون تصرفات منحرفة أو ينقلون الأخبار الكاذبة المشوشة؛ وهذه الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات تعلم المؤمن كيف يتعامل مع أخيه المؤمن، وتعالج في الوقت نفسه أمراضا تنخر جسم المجتمع إذا تفشت فيه، بهدف تصفية المجتمع المسلمْ باعتباره مجتمع المؤمنين الصادقين المتآلفين، وتنقيته من ثلاثة أمور مرتبة ترتيبا بديعا هي السخرية، واللمز، والنبز، لأنها شوائب موبقة وأعراض مثبطة تعرقل مسيرة الأمة نحو ألفتها وسلامتها ورقيها.

أسباب النزول :

ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات كثيرة[1]:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في ثابت بن قيس ابن شماس، وقد كان في أذنه وَقر، فإذا سبقوه إلى مجلس النبي ﷺ أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول. فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبي ﷺ، فلما انصرف ﷺ أخذ أصحابه مجالسهم منه، فربض كل رجل منهم بمجلسه لا يكاد يوسع أحد لأحد، فلما أكمل ثابت صلاته تخطى رقاب الناس وهو يقول: تفسّحوا، تفسحوا؛ ففسحوا له حتى انتهى إلى النبي ﷺ وبَينه وبينه رجل فقال له: تفسح. فقال الرجل: قد وجدتَ مجلساً فاجلس. فجلس ثابت من خلفه مغضَباً ثم قال: من هذا؟ قالوا: فلان. فقال ثابت: ابن فلانة؟ يعني أماً له في الجاهلية يعيره بها، فاستحيى الرجل، فنزلت.

وعن الضحاك أنها نزلت في وفد تميم الذين تقدم ذكرهم في أول السورة[2] استهزأوا بفقراء الصحابة مثل عمار بن ياسر، وخباب ابن الأرث، وعامر بن فهيرة، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وسالم مولى أبي حذيفة، وغيرهم، لما رأوا من رثاثة حالهم، فنزلت في الذين آمنوا منهم.

---

(1) انظر هذه الروايات في: الصحيحين، وفي تفاسير الطبري 81/26/11، وابن كثير 150/13، والبيضاوي 416/2، والقرطبي 315/16/08، والشوكاني 655؛ وفي الكشاف 566/3، والمحرر الوجيز 140/15، والدر المنثور 560/26/7.

(2) راجع ص 34 – 35 من هذا الكتاب.

وقيل: إن عكرمة ابن أبي جهل حين قدم المدينة مسلما، كان المسلمون إذا رأوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة؛ فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت.

وأما قوله تعالى في هذه الآية ﴿ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن﴾ فعن أنس رضي الله عنه أنه نزل في امرأتين من أزواج النبي ﷺ سخرتا من أم سلمة؛ وعن عكرمة أن أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله، إن النساء يعيرنني ويقلن لي: يايهودية بنت يهوديين!! فقال رسول الله ﷺ: «**هلا قلت إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد** ﷺ»[3] فأنزل الله عز وجل هذه الآية؛ وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن حفصة قالت لصفية رضي الله عنهما: يهودية بنت يهوديين، فبكت صفية، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال: «**ما يبكيك؟ قالت: قالت لي حفصة إني بنت يهودي، فقال: إنك لابنة نبي، وعمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفتخر عليك؟ ثم قال: اتقي الله ياحفصة**»[4].

وقوله تعالى: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ عن أبي جُبيرة بن الضحاك بن خليفة الأنصاري قال: فينا نزلت في بني سلمة، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فيدعى ببعضها فعسى أن يكره، فنزلت[5].

---

(3) أخرجه ابن ماجة في السنن، وانظر نيل الأوطار 232/5.

(4) أخرجه الإمام الترمذي في المناقب، بتحفة الأحوذي 392/10 ح 3894 وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(5) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن. ورواه أبو داود في الأدب 290/4 ح: 4962، وأحمد في المسند 69/4، ح: 16697 وإسناده صحيح.

وما كان أنسب قول ابن عطية وأروعه: «**إن القوي من تلك الروايات أن هذه الآية نزلت تقويما كسائر أمر الشرع، ولو تتبعنا الأسباب لكانت أكثر من أن تحصي**»[6].

القراءات:

في قراءة عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب: (عسوا أن يكونوا)، و(عسين أن يكن)؛ فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر، كالتي في قوله تعالى: ﴿فهل عسيتم﴾[7]، وعلى الأولى التي لا خبر لها كقوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا﴾[8].

ووقف يعقوب في (منهن) بهاء السكت بخلف عنه.

وقرأ يعقوب في رواية: (ولا تُلمِزوا) بضم التاء وكسر الميم، وقرأ الأعرج، ويعقوب في رواية أخرى: (تَلْمُزوا) بفتح التاء وضم الميم، ووافقه الحسن؛ وقال أبو عمرو ابن العلاء: هي عربية؛ وقرأ الباقون: (تَلمِزوا) بفتح التاء وكسر الميم.

وقرأ البزي: (ولا تّنابزوا) بخلفه وصلا مع المد المشبع للساكنين، ووافقه ابن محيصن؛ وقرأ الباقون: (ولا تَنابَزوا) بالتخفيف، وهو الثاني للبزي وموافقه ابن محيصن، ولا خلاف بينهم في التخفيف ابتداء.

وقرأ ورش من طريقه: (بيس الاسم)، وقرأه أبو عمرو بخلفه، ووافقه اليزيدي وأبو جعفر؛ وقرأه الباقون: (بئس الاسم). وقرأه

(6) المحرر الوجيز 142/15.

(7) سورة القتال 22/47.

(8) سورة البقرة 216/2.

حمزة بالوقف على (بئس) والابتداء بـ(الاسم)، وللقراء في الوقف عليه وجهان: الابتداء بهمزة الوصل مفتوحة، والابتداء باللام مكسورة؛ ولا خلاف على حذف التي بعد اللام للجميع.

ووقف حمزة في قوله تعالى: ﴿الإيمان﴾ بالنقل وبالسكت؛ وقرأ ورش من طريقه بالنقل، وللأزرق ثلاثة: النقل، والسكت، والبدل. وقرأ بالسكت على الساكن قبل الهمز ابن ذكوان وحفص وحمزة وإدريس بخلفهم.

من أجل التبيُّن والبيان :

كان أهل الجاهلية يجرون مع شهوات نفوسهم ونزواتهم؛ فكان الرجل يسطو ويهمز ويلمز وينبز بالألقاب فيدعو الآخرين بها ويظن الظنون فيتكلم بها، ويغتاب ويفتخر بنسبه، إلى غير ذلك من أخلاق النفوس البطالة. وجاءهم الإسلام ليقوِّمهم أمرُ الله ونهيُه وسنةُ رسوله ﷺ وسيرتُه ومنهجُه؛ فجاءت هذه السورة لتؤدب الناس، وفي مقدمتهم أمة سيدنا محمد ﷺ بآداب إنسانية تصلح الأحوال وتزيل أسباب الفرقة والتنافر والتناحر والضعف، وتنشر أسباب المحبة والتوادد والتقارب والقوة.

﴿لا يسخر قوم من قوم﴾: يسخر: مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، والمعنى: لا يستهزئ، والعرب تقول: سخِر منه يسخَر، إذا استهزأ به واستخف، والسخرية: الاستهزاء. والقوم: الجماعة من الرجال والنساء جميعا، وسموا قوما لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد، ففي اللسان: «**يقال: قام واستقام كما يقال: أجاب**

واستجاب»[9]. وهو في الأصلِ من أسماء الجمع، كالرهط والنفر؛ جمع قائم من القيام، كصَوْم وزوْر في جمع صائم وزائر؛ أو هو تسمية بالمصدر، فإن العرب تقول: «**إذا أكلت طعاما أحببت نوماً وأبغضت قوماً**»، أي قياماً؛ ثم استعمل في كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين. وقد يخص لفظ (قوم) بالمذكرين، لأنهم القائمون بأمر النساء، كما يفيده قول زهير:

وما أدري، وسوف إخال أدري
أقـــوم آل حصـــن أم نســاء

وكما يدل عليه قول رب العزة سبحانه: ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾[10]، أشار الرسول الأكرم ﷺ إلى معناه في قوله: «**النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه، والذابون هم الرجال**»[11]. ويعتبر البعض دخول النساء في القوم إنما هو على سبيل المجاز، ولكن يرده ما يدل عليه اللفظ في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**إنا أرسلنا نوحا إلى قومه**﴾[12] إذ هو هنا يشمل الجميع؛ ولكن اختصاصه بالرجال صريح في آية سورة الحجرات موضوعنا، ولو كانت النساء داخلات في الخطاب لما قال بعدُ ﴿**ولا نساء من نساء**﴾؛ وليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين: الذكور والإناث، وحيث فسر بهما معا، كقوم عاد وقوم فرعون، فإما على التغليب وإما على الاكتفاء بذكر الرجال عن ذكر النساء لأنهن توابع. والمعنى العام: لا يستخفوا ولا يستهزئوا بعضهم ببعض.

(9) لسان العرب 501/12 مادة (قوم).
(10) سورة النساء 34/4.
(11) الكشاف 565/3 ولم أجده في كتب السنة لا في الموسوعة ولا في غيرها.
(12) سورة نوح 1/71، وانظر الكشاف 565/3.

﴿عسى أن يكونوا خيرا منهم﴾ قد يكون القصد الخيرية عند الله، أو أنهم قد يكونون خيراً معتقَداً وسلامةَ باطن؛ أي قد يكون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر، أو خيرا منه عقيدة وأسلم منه باطنا؛ فلا يستهزئ غني بفقير، ولا مستور عليه ذنبه بمن لم يستر، ولا ذو حسب بلئيم، وأشباه ذلك مما ينتقص الإنسان به ولعله عند الله خير ممن انتقصه.

﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾: اللمز: الطعن باللسان وهو العيب، ومنه قوله تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾[13]، وهو مشبه بالهمز بالعود ونحوه مما يقتضي المماسة، غير أن الهمز لا يكون إلا باللسان، واللمز يكون باليد والعين واللسان والإشارة؛ وعن ابن عطية: «**حكى الثعلبي أن اللمز ما كان في المشهد، والهمز ما كان في المغيب**»، ومنه قوله تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾»[14]. وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾[15] أي لا يقتل بعضكم بعضا، ومثل قوله جل من قائل: ﴿فسلموا على أنفسكم﴾[16] يعني يسلم بعضكم على بعض. والمعنى: لا يَعِبْ بعضُكم بعضاً بذكر نقائصه، أولا يطعن بعضكم على بعض، أو لا يلعن بعضكم بعضا؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه بقتل أخيه قاتلٌ نفسَه وبعيب أخيه فكأنما عاب نفسه؛ أو لا تفعلوا ما تُلمَزون به لأن من فعل ما استحق به اللمز فكأنما لمز نفسه حقيقة.

---

(13) سورة التوبة 58/9.

(14) المحرر الوجيز 143/15، والآية من سورة الهمزة 1/102.

(15) سورة النساء 29/4.

(16) سورة النور 59/24.

واللمز أو القدح والهزؤ والسخرية إنما تترتب متى ضعف امرؤ، إما لصغر شأنه وإما لعلة حادثة وقع فيها وإما لرزية أصيب بها أو نقيصة يأتيها، ولكن لا أحد يعرف قيمة أحد عند الله عز وجل ومنزلته عنده، لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات، وإنما الذي يزن الناس عند الله هو خلوص الضمائر وتقوى القلوب، وحيث إن علمهم بمعزل من ذلك فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يُرى رث الحال أو ذا عاهة في بدنه أو فكره أو عمله أو حتى في دينه ـ كما يرى البعض ـ فلعله أخلص ضميرا وأتقى قلبا ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله؛ وفي الحديث: «**لا تُظهِر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك**»[17].

﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾: النَّبَز: اللقب، والجمع الأنباز. والنبْز المصدر، تقول: نبزه يَنبُزه نَبْزاً أي لقبه.. والتنابز بالألقاب: التداعي بها أي أن يلقب بعضهم بعضا ويدعو بعضهم بعضا بلقب السوء خاصة، لأن النبز في العرف اللغوي مختص بلقب السوء، كأن يقول الرجل للرجل بعد توبته: يافاسق، أو يامنافق، أو يازاني، أو يقول لليهودي أو النصراني بعد إسلامه: يايهودي أو يانصراني أو ياكافر، أو يقول شخص لشخص: ياكلب أو ياحمار أو يابليد..

﴿بيس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي بئس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته، وقد يكون المعنى أن من لقب أخاه أو سخر منه فهو فاسق، لأن فعل ما نهى الله عنه من السخرية والهمز

(17) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، برقم 2506.

والنبز يعد فسوقا، وذلك لا يجوز.. و(الاسم) ههنا بمعنى الذِّكْر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، كقولهم: طار ثناؤه وذاع صيته، بمعنى ما سما من ذكره وارتفع بين الناس؛ فكأن المعنى: بئس أن ترتكب هذه المنهيات فيذكر المؤمنون بالفسق وتروج بينهم الأوصاف النابية.

وفي قوله: ﴿بعد الإيمان﴾ استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره، والنهي عن تلقيب الناس بما يكرهون من الألقاب، وذم التنابز واستقباحه واعتباره مناقضا للإيمان.

﴿ومن لم يتب﴾ ويقلع عما نهي عنه من هذه الألقاب التي يتأذى بها السامعون، ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ أي أولئك الذين ارتكبوا هذه المناهي ووضعوا المعصية موضع الطاعة، والمخالفة موضع الانقياد لأمر الله ورسوله، ولم يتوبوا إلى الله من هذه المعاصي فيتوقفوا عنها، ويندموا على ما صَدر عنهم منها، فأولئك هم الضارون لأنفسهم بتعريضها لعذاب الله، لكنهم إن تابوا واستغفروا خرجوا من الظلم.

فالمؤمنون منهيون بنص الكتاب الحكيم والحديث الشريف نهي تحريم عن الاستهزاء بالناس في مثل هذه الأحوال وغيرها مما يماثلها، فكيف إذا كان الملموز أو الموسوم بلقب وضيع جارح أفضل عند الله من الساخر اللامز؟! ومن أقبح القبائح سخرية الدنيء الأرذل بالأكرم الأفضل واستهزاؤه به! من ثم كان الاحتياط لازما وكف اللسان عن التلفظ بألقاب السوء واجبا، والخوض في ذلك فسقا، فجاء هذا النهي رحمة وتوجيهاً وإرشاداً.

وقد بلغ السلف الصالح درجة عالية في توقي ذلك والتصون منه، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «**البلاء موَكّلٌ بالقول، لو سَخِرتُ من كلب لخشيتُ أن أحول كلباً**»، وعن عمرو بن شرحبيل: «**لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه**»[18].

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الكِبر بَطَر الحق وغمط الناس**»[19]، يعني احتقارهم واستصغارهم، وهو محرم، والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾[20]، وكما قال: ﴿**هماز مشاء بنميم**﴾[21]؛ ولهذا نص الله عز وجل في هذه السورة على نهي الرجال عن ذلك، وعطف بنهي النساء وأفردهن بالذكر لأن السخرية فيهن ـ في الأغلب ـ أكثر وأشيع.

والتلقيب المنهي عنه هو ما يشعر المدعو به بكراهة، أو ما يفيد ذما أو عيبا له من الألقاب لما قد تعنيه من تقبيح أو تقصير، فأما ما يحبه مما يزينه وينوه به فلا حرج فيه ولا نهي عنه، والنبي ﷺ بين أن «**من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه**»[22]، بل إن السيرة النبوية تفيد أن التكنية من السنة وحسن الأدب مع

(18) البحر المديد 168/7.

(19) أخرجه الإمام مسلم في الإيمان، برقم 147، والترمذي في البر والصلة برقم 2000.

(20) سورة الهمزة 1/102.

(21) سورة القلم 11/68.

(22) ذكره الزمخشري في الكشاف 566/3، والقرطبي في الجامع 324/16/8 ولم أجده فيما بحثت فيه من مصادر السنة.

الناس: فلقد وصف رسول الله ﷺ عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجلّ الألقاب، ولُقّب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وعثمان بذي النورين، وعلي بأبي تراب، وخالد بسيف الله، وخزيمة بذي الشهادتين، وأبو هريرة بذي الشمالين وبذي اليدين، ونحو ذلك. وقال عمر رضي الله عنه: «**أشيعوا الكنى فإنها منبهة**»[23]، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير. وعلى هذا المعنى ترجم البخاري رحمه الله في (كتاب الأدب) من الجامع الصحيح في (باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير) قال: وقال النبي ﷺ: «**مايقول ذو اليدين وما لا يراد به شين الرجل**»[24]، وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن سرجس قال: «**رأيت الأصلع - يعني عمر - يقبل الحجر. وفي رواية: الأُصيلع**»[25].

فهناك استثناء من التحريم وهو ما لا يشعر بشيء من النقص أو الكراهة، أو ما يكسب حمدا ومدحا، أو الألقاب التي صارت كالأعلام لأصحابها؛ فقد ذهب المحدِّثون إلى أنه ليس يدخل في النهي قولهم: سليمان الأعمش، وواصل الأحدب، ونحوه مما تدعو الضرورة إليه وليس فيه قصد استخفاف وأذى ولا يكرهه المدعوون به..

---

(23) الكشاف 3/566.

(24) رواه البخاري، ومسلم.

(25) صحيح مسلم بالنووي 9/119 وما بعدها.

في التذوق الفني للآية :

تضمنت هذه الآية كما هو منهج القرآن الكريم عامة جملة من الصور الأسلوبية البيانية والتعابير الفنية المتنوعة:

ـ فأسلوب النداء في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ موجه لمن شأنهم القرب من المنادي، إذ المؤمنون قريبون من ربهم بطاعاتهم واستقامتهم على أمر ربهم وتسليمهم بما جاء به نبيهم، فحقهم أن ينادوا في غير كلام الله الحكيم بأدوات نداء القريب، مثل الهمزة، لكنهم نودوا في الآية بما ينادى به البعيد وهو(يا) تشويقا واستدعاء للانتباه وإعدادا لتقبل أمر له خطورته وأبعاده في حياة الجماعة المؤمنة. ثم إن مخاطبة هذه الجماعة بـ(الذين آمنوا) هو امتداح لها وإشعار بإقرار الحق سبحانه وتعالى لها ببلوغ درجة الإيمان.

ـ وأسلوب النهي تكرر في الآية أربع مرات بصيغة المضارع المقرون بلا الناهية، وهو في جميعها وارد على حقيقته إذ يفيد في الآية طلب الترك على وجه الاستعلاء، نهي فيها جميعا عن ثلاث خصال ناخرة للمجتمعات مؤدية إلى الفرقة والتناحر والبغضاء: السخرية من الآخرين، واللمز بالأوصاف الذميمة المعيبة، والتنابز بالألقاب المستقبحة المكروهة.

وفي قوله تعالى: ﴿بيس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ صيغة لإنشاء الذم تدل على تقبيح ما تقدم النهي عنه، وتنبه المتلقين من المومنين إلى أن ارتكابها خروج عن جادة الإيمان الذي أكرموا أنفسهم بالتزامه، فليترفعوا عما يبعدهم عنه من تلك الخصال.

ويتضمن التعبير في قوله تعالى﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ تحذيرا من الوقوع في ظلم النفس وهو تهديد بغضب الله وسخطه على من يقع في ذلك الظلم، وتحذير أيضا من المشاكل الاجتماعية التي قد تنجم عن سوء العلاقات وتفشي الأحقاد والحزازات وغير ذلك؛ وهي في الوقت نفسه دعوة ربانية رحيمة للمخطئين الواقعين في المخالفات وارتكاب المنهيات إلى التوبة إلى الله والتزام الطاعات واجتناب النواهي، ففي ذلك تحصين لهم من الهلاك الذي يوقع فيه ظلم النفس؛ جاء ذلك كله بأسلوب خبري وجيز مركز في جملة واحدة.

وأما البنية التركيبية لهذه الآية الكريمة فإنها تتكون من سبع جمل فعلية، وست جمل اسمية، فيها الجمل الرئيسة الكبرى، وفيها الجمل الفرعية التابعة؛ وفيها ثلاثة أفعال جامدة، وستة أفعال مشتقة، وثلاثة عشر اسما، ومصدر واحد، واسم فاعل واحد. وقد اختار التعبير الرباني صيغة الجمع في الخطاب بهذه الآية الكريمة لأن الصفات المنهي عنها فيها تغلب في المجامع؛ والتعبير بأسلوب ما يختلف في الدلالات المعنوية والمقاصد البلاغية والغايات البيانية من التعبير بغيره: فقد قال جل علاه: ﴿قوم من قوم﴾ ﴿ولا نساء من نساء﴾ على الجمع، ولم يقل: (رجل من رجل) (ولا امرأة من امرأة) على الإفراد إعلاما بإقدام الكثير من الرجال والكثيرات من النساء على السخرية واللمز والنبز، واستفظاعا لما كان عليه الناس قبل، وما ينتشر فيهم عبر الأزمنة من تلك الصفات المذمومة.

وتنكير (قوم) و(نساء) في الآية له وجهان: إما لإرادة البعض، أي لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض، وإما لإرادة الشيوع بأن تعتبر كل جماعة من المؤمنين منهية عن السخرية. وللتنكير في البلاغة العربية مواطنه حيث لا يليق التعريف، وللتعريف مجالاته حيث لا يحسن التنكير، والكلام في الوحي على أرفع درجات البلاغة كما يرى المتذوق له بمعرفة، السابر أغواره بدراية.

و(عسى) باسمها في قوله تعالى ﴿عسى أن يكونوا﴾ وقوله سبحانه ﴿عسى أن يكن﴾ استئناف منبئ بالعلة الموجبة للنهي، ولا خبر لها في الموضعين لأن الاسم أغنى عنه، لكنها ذات خبر في قراءة (عسوا..) و(عسين..) كما تقدم بيانه في فقرة القراءات أعلاه؛ فالكلام مستأنف، وإلا فحقه في غير كلام العلي العظيم سبحانه أن يوصل بما قبله بالفاء.

من مستخلصات الآية:

في الآية دعوة ربانية حكيمة رحيمة إلى ما يؤسس للمجتمع القوي المتماسك المتحضر المتآلف، وينفر من كل سبل الضعف والتربص وأشواك التخلف والفرقة والفردانية والتخالف؛ ومن أروع ما يفيده كتاب الله عز وجل في مجمله تلك التوجيهات البانية للفرد والمجتمع والأمة، المبثوثة في آيه وسوره، الموجهة للإنسانية إلى ما فيه سعادتها وهناء أفرادها. وفي هذه الآية الكريمة توجيه للناس إلى أن لا يقطع أحد منهم بعيب أحد لما قد يرى عليه من الأقوال والأعمال الظاهرة كانت في مجال الطاعة أو في نطاق المخالفة؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا

مذموما لا تصح معه تلك الأعمال؛ ولعل من يرى عليه تفريط أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه، فالأقوال المنطوقة والأعمال الظاهرة هي على النوايا والطوية أمارات ظنية لا أدلة قطعية؛ وهذا ما يعضده قول رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[26]؛ فالواجب عدم الغلو في تعظيم من ترى عليه أفعال صالحة، وعدم احتقار من يرى على عيب أو نقص أو إخلال أو أفعال سيئة، وإنما يجوز أن تحتقر وتذم الحالة السيئة لا الذات المسيئة، فبهذا يمكن معالجة المواقف وتقويم الاعوجاجات وتهذيب النفوس وتنقية المجتمعات.

ومجلس الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله، ولا يقوم بما يجب عليه من النهي والإنكار، فيكون شريكا للساخر في تحمل الوزر واكتساب الإثم، وكذلك كل من يطرق سمعه شتم أو عيب أو لمز فيستطيبه ويضحك به فيؤدي ذلك وإن أوجده واحد إلى تكاثر الساخرين وانقلاب الواحد جماعة وقوما!

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن السخرية جاء ذم فاعله ووعيده بالعقوبة عند الله تعالى في غير هذا الموضع، كقوله سبحانه: ﴿**الذين يلمزون المطوعين من المومنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم**﴾[27]، وقد بين جل جلاله أن الكفار المترفين قد يسخرون

(26) روي الحديث بطرق ومتون مختلفة عند الإمام مسلم في البر والصلة، منها رواية في باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره عن أبي هريرة رضي الله عنه، الحديث 2564؛ وعند ابن ماجة في السنن وغيرهما.

(27) سورة التوبة 80/9.

من ضعاف المومنين في دار الدنيا، ولكن هؤلاء سيسخرون من الكفار يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿زين للذين كفروا الحياةُ الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾[28]، وقوله جل من قائل: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين، وإذا رأوهم قالوا: إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾[29].

وذكر بعض المفسرين أن النهي عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب خاص بالمؤمنين، وأنه لا حرج عليهم أن يعيبوا غيرهم ممن لا يدين بدينهم ولا يسير بسيرتهم، واستندوا إلى حديث: «**اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس**»[30]، وإلى ما روي عن الحسن رضي الله عنه في ذكر الحجاج: «**أخرج إلي بنانا قصيرة قلما عرقت فيها الأعنة في سبيل الله**»، ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول: «**يا أبا سعيد**»، وقال لما مات: «**اللهم أنت أمته فاقطع سنته فإنه أتانا أخيفش أعيمش يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة لا من الله يتقي ولا من الناس يستحي، فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقوله قائل الصلاة أيها الرجل الصلاة أيها الرجل، هيهات دون ذلك السيف والسوط**»[31]. وهذا مجال للنظر والتأمل، إذ الثابت شرعا أن

---

(28) سورة البقرة 210/2.

(29) سورة المطففين 36/2983.

(30) الكشاف 5663، وكشف الخفا 1141، 4922.

(31) الكشاف 3/ 566.

المسلمين لا يجوز لهم أن يسيئوا معاملة غيرهم ممن لا يدين بدينهم ولا يسير بسيرتهم إلا أن يكون محاربا للإسلام والمسلمين أو معينا لمحارب، وهو أمر معروف لا ينكره أحد، ولا حاجة لبسطه في هذا المقام، وما استُدل به على خلافه لا يثبت.

في محراب الآية:

إن العاقل يأنف أن يخوض مع الخائضين في ذكر العيوب والنقائص أو ينخرط في سلك الاستهزاء والسخرية بالآخرين فيعرض نفسه بذلك للقدح والعيب والسخرية، وربما ظلم نفسه وعرضها لغضب الله تعالى، وربما أدى ذلك إلى نشر البغضاء والكراهية والأحقاد في المجتمع، والمؤمنون كما هو مقرر في شرع الله إخوة تسود بينهم المحبة والألفة والتآزر والتناصر، فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالإحساس بالألم والنقص؛ ومن سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره، وقديما قال الشاعر:

المرء إن كان عاقلاً ورِعاً
أشغله عَن عيوبه ورَعُهْ
كما السقيمُ المريضُ يشغله
عن وجع الناس كلِّهم وَجَعُهْ

والشأن في المؤمن تعظيم مخلوقات الله والاحتراز من إذايتها ماديا ومعنويا كائنا ما كانت، نباتا وأشجارا، أو بيئة وأحوالا، أو حيوانا وأرواحا، ولاسيما الإنسان هذا المخلوق الذي كرمه الله عز وجل

وفضله على كثير من مخلوقاته؛ وعند المتصوفة أن «**شروط التصوف أربعة: كف الأذى، وحمل الجفا، وشهود الصفا، ورمي الدنيا بالقفا**»[32]، وهم يعنون بشهود الصفا نفوذ بصيرة المخلوق إلى شهود صنعة الخالق دون الوقوف مع حسن الصنعة، وأن يجري ذلك في الأشياء كلها؛ ومن ثم كان من الواجب اجتناب إذاية الناس بالاستهزاء بهم أو احتقارهم بالكلام الساخر أو مضايقتهم بمناداتهم بالألقاب التي يكرهونها، أو التنقيص من شأنهم باللمز والهمز، فذلك نهى عنه الشرع واعتبره نقصا في بناء المجتمع السليم المتآلف، وعرقلة في إقامة العلاقات الطيبة بين أفراده، وطريقا إلى اليأس من رحمة الخالق جل علاه، تدل على ذلك نصوص كثيرة منها قول رسول الله ﷺ: «**إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لأحدهم: هلم، فيجيء بغمه وكربه، فإذا جاء أُغلق دونه ثم يُفعل به هكذا مرارا، من باب إلى باب حتى يأتيه الإياس**»[33]؛ والمؤمنون إنما هم إخوة كنفس واحدة، فهم كما قال رسول الله ﷺ: «**كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى**»[34]؛ ومن الدواهي أن لا يسلم المتهِمُ أخاه بأمر، من أن يلحقه إثمه ويرجع إليه وصفه فيبوء بإثمه وتعود عليه جريرته ! ففيما روي عن رسول الله ﷺ قوله: «**من قال لأخيه ياكافر فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال وإلا رجعت عليه**»[35]. وعنه

(32) البحر المديد 1697، عن البدور السافرة.

(33) حديث حسن، رواه البيهقي عن الحسن في الشعب مرسلا، وهو في الترغيب والترهيب 573/3 الحديث 4365.

(34) أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه. وأول الحديث قوله ﷺ :«مثل المومنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد...».

(35) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ص 530 ح 1895، والإمام أحمد في المسند 112/2.

أيضا قوله ﷺ: «**من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله**»[36].

فإذا ابتلي امرؤ بالوقوع في تلك الأمور التي نهي عنها في الآية الكريمة واقتراف إثمها فما عليه إلا أن يتوب ويستغفر، وباب التوبة بفضل الله عز وجل ومَنِّه مفتوح على الدوام حتى يحين الحين أو يغرغر العبد؛ وشروطها المقررة ثلاثة:

ـ الكف والتوقف عن المخالفة أو المعصية أو الإثم.

ـ الندم عما بدر وصدر من التائب المستغفر.

ـ العزم على عدم الرجوع إلى الذنب أو المعصية.

ذلك إن تعلق الأمر بمعصية في حق الله تعالى، فإن تعلق بحق مخلوق زاد على ذلك أن يبرئ التائب ذمته معه فيرد إليه حقه أو يستسمح منه ويستبرئ. ومن تابَ تاب الله عليه، ومن استغفر غفر الله له، ﴿**وإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾[37]، وعن حذيفة رضي الله عنه: شكوت إلى رسول الله ﷺ ذرَب لساني فقال: «**أين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة**»[38]، وفي حديث ابن عمر: كنا نعُد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم»[39].

---

(36) رواه الترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وقال: حديث حسن غريب، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب 277/3 الحديث 3635.

وقال محققوه: حديث حسن بشواهده، وفي إسناده انقطاع.

(37) سورة البقرة 220/2.

(38) أخرجه الإمام أحمد في المسند 394/5، 396؛ والذَّرَب: الفحش.

(39) أخرجه أبو داود في الصلاة، ح 1516، والترمذي في الدعوات، ح 3434، وابن ماجة في الأدب، ح 3814.

6

علاج ثلاثة أمراض موبقة

﴿يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾(12).

مدخل :

تنتشر في المجتمعات المعاصرة أمراض كثيرة تنهك الذات الفردية وتتجاوز الفرد سلبياتها وسوء نتائجها فتمتد أخطارها وعواقبها إلى الجماعة فتصاب بالفرقة والعداوة والإنهاك والاختلال. ولكم حاولت الأبحاث الاجتماعية الأولية والمتطورة والنظريات الإصلاحية القديمة والحديثة معالجة تلك الأمراض من زوايا مختلفة بطرق متنوعة: فألف المؤلفون والفلاسفة قديما وحديثا الكتب والمقالات في الأخلاق الفاضلة والمجتمعات المثالية كما يتخيلها البشر، وألقى الخطباء ذوو النيات الحسنة من المصلحين الاجتماعيين والسياسيين المتمرسين كلمات بليغة عميقة تدعو إلى التحلي بالقيم وتحسين النيات وترشيد السلوك في المعاملات والاختيارات.

غير أن قارئ القرآن الكريم يجد نكهة خاصة في النفس الذي يعرض به موضوع تصحيح التوجهات البشرية فردية كانت أو اجتماعية، وحكمة بالغة في طريقة معالجة الأمراض المتفشية أو التي يمكن أن تتفشى في المجتمع البشري عامة:

أولا لأن الموجه الناصح هو رب البشر بما تحمله الربوبية من معاني الرعاية الصادرة عن الخالق الذي برأ البشر وسوى خلق الإنسان وارتضاه حنيفا إلى الحق مستقيما على الخير، بغض النظر عما سيكون أو يفكر أو يسلك، وقد سبق في علمه سبحانه وتعالى ما سبق مما سيكون من أمر هذا الإنسان.

وثانيا لأن التوجيهات الواردة في الوحي عملية مناسبة للإنسان بطبعه تترفع به عن الدونية واللاإنسانية، وليست مثالية مغرقة في الخيال بحيث تبعد عن التنفيذ أو تستعصي على التطبيق أو تتفوق على الطاقة البشرية.

ولا ريب في أن من أخطر الأمراض الداخلة في هذا السياق أمراضا ثلاثة ذميمة سيئة العواقب: فأولها تلك النوايا السيئة والخبيثة التي قد تختفي في ضمير الإنسان لتنجب أفكارا باطلة أو أحكاما جائرة أو سلوكات ظالمة، وثانيها تطلع الإنسان إلى الأحوال الخاصة الخفية الباطنة لأخيه الإنسان مما يفضح ما يكنه الإنسان أو يكشف ما يستره، والثالث التكلم عن الناس في غيبتهم بالمكروه المذموم من القول أو الوصف.

وقد تصدى القرآن الكريم في هذه الآية وفي غيرها لهذه الأمراض ببيان أخطارها ووصف منهج معالجتها، كما تصدت السنة

المبينة للقرآن المفصلة لمجمله إليها، ضمن التطبيقات القرآنية والتوجيهات النبوية الهادية.

أسباب النزول:

مع أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يتقرر ذلك عند الأصوليين، فإن استحضار أسباب النزول يلقي الأضواء على معاني الآي والسور وينور العقول للاهتداء إلى مقاصدها، ثم تستأنف العقول مسيرتها المستنيرة بالوحي بشقيه: الكتاب والسنة، وبالنظر المتدبر في كتابي الله: المنظور والمسطور، لإنزال آي القرآن الكريم في أرض الواقع اليومي للفرد، واستثمارها في الحياة العملية للجماعة.

وهذه الآية الثانية عشرة من سورة الحجرات روي أنها نزلت في رجلين من أصحاب النبي ﷺ اغتابا رفيقين لهما: ذلك أن النبي ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين فيفيد ويستفيد؛ فضم سيدنا سلمان رضي الله عنه ذات مرة إلى رجلين من الصحابة يخدمهما ويسوي لهما طعامهما، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيء لهما شيئا، ولما عاد صاحباه لم يجدا شيئا، فقالا له: «**انطلق فاطلب لنا من النبي ﷺ طعاما وإداما، فذهب، فقال له النبي ﷺ: «اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له: إن كان عندك فضل من طعام، فليعطك**»، وكان أسامة خازن النبي ﷺ، فذهب إليه سلمان، فقال أسامة: ما عندي شيء. فرجع إليهما فأخبرهما فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل. ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد

عندهم شيئا، فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة[1] لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء، فرآهما النبي ﷺ فقال: «**ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟**» فقالا: يانبي الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحما ولا غيره! فقال: «**ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة**» فنزلت: الآية. وفي رواية الكشاف: «**إنكما قد اغتبتما**»[2].

القراءات:

وقف حمزة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ بالتحقيق، وبالتسهيل بين بين.

وقرأ أبو الحسن وأبو رجاء وابن سيرين والهذليون قوله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾: (ولا تحسسوا) بالحاء المهملة، من «الحس» الذي هو أثر الجس وغايته. وقرأ البزي بخلفه وصلاً مع المد المشبع للساكنين، ووافقه ابن محيصن؛ وقرأ الباقون (ولا تَجسسوا) ـ بالجيم المنقوطة ـ وهو الثاني للبزي ومن وافقه، ولا خلاف بينهم في التخفيف ابتداء.

وأما قوله تعالى: ﴿مَيْتًا﴾ فقرأه نافع وابن القعقاع وشيبة ومجاهد (ميِّتا) بكسر الياء وتشديدها، وقرأه نافع وأبو جعفر ورويس بخلفه، ووافقهم ابن محيصن في قول ثان له، وشدده نافع أيضا؛ وقرأه الجمهور (ميْتا) بإسكانها من غير تشديد.

---

(1) بئر قديمة بالمدينة المنورة غزيرة الماء.

(2) القرطبي 330/16/8، وابن كثير 155/13 - 168، والزمخشري 567/3 - 568، والبيضاوي 417/2، والخازن 227/6/4.

وقوله تعالى: ﴿فكرهتموه﴾ قرأه أبو حيوة (فكُرِّهتموه) بضم الكاف وتشديد الراء بمعنى جُبلتم على كراهته، وقرأه الباقون (فكَرِهتموه) بفتح الكاف وكسر الراء المخففة.

من أجل التبيُّن والبيان:

أما قوله تعالى: ﴿اجتنبوا كثيرا من الظن، إن بعض الظن إثم﴾ فإنه يقال في اللغة: جَنَّبَه الشر: أي أَبعَده عنه، وحقيقته: جعله منه في جانب؛ و(جنّب) يتعدى إلى مفعولين، كما في قوله عز وجل: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾[3]؛ ويقال في مطاوعه: اجتنب الشر، فتنقص المطاوعة مفعولا. والمأمور باجتنابه هو بعض الظن، بأن لا يظن بأهل الخير سوءاً. والإثم: الذنب الذي يستحق صاحبه العقوبة عليه، والهمزة فيه بدل من الواو كأنه يَثِمُ الأعمال أي يكسرها. وقوله تعالى (إن بعض الظن إثم) تعليل للأمر بالاجتناب، ومن ثم فالواجب ألا يعتمد على مجرد الظن فيعمل به أو يتكلم بحسبه. ويحتمل أن يكون المعنى: اجتنبوا الكثير من الظن وتحرزوا منه، فإن بعض الظن إثم، وأولى كثيره. و(إثم) في الآية معناه كذب، ويعضده قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[4].

والظن بالنظر إلى الآخذ به ظنان: أحدهما إثم وهو أن يظن ويتكلم به، والآخر ليس بإثم وهو أن يظن ولا يتكلم به.

---

(3) سورة إبراهيم 37/14.

(4) يأتي نص الحديث كاملا وشيكاً في ص 193، وتخريجه في الحاشية 13. من الصفحة بعدها : 194.

وهو بالنظر إلى أثر الأخذ به والحكم بمقتضاه أحوال:

1) حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن، كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قيم المتلفات وأروش[5] الجنايات.

2) حالة يقع بها في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشك، ولا يجوز الحكم به إذ هو المنهي عنه.

وقد أنكرت جماعة من المبتدعة تعبد الله بالظن وجواز العمل به تحكما في الدين ودعوى في المعقول؛ وليس في ذلك أصل يعول عليه ـ كما يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى ـ فإنه سبحانه إنما ذم بعض الظن لا كل ظن؛ ولا حجة لهم في حديث أبي هريرة المتقدم: «**إياكم والظن**» الحديث، لأن الظن منه محمود ومنه مذموم، فالمحمود ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه؛ والمذموم ضده؛ والظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، والظن القبيح بمن ظاهره القبح لا حرج فيه[6].

والظن بالنظر إلى حكمه ثلاثة أنواع:

ـ مأمور به واجب الاتباع وهو الظن الحسن بالله عز وجل، والظن فيما لا قاطع فيه من العمليات؛

ـ مندوب إليه وهو الظن الحسن بالأخ المسلم الظاهر العدالة؛

---

(5) مفرده (أرش) : وهو العوض المالي الذي يقدر شرعاً بدلاً لجزء فائت من الأصل، ويجب على الجاني دفعه في غير النفس والأعضاء، أما العوض عن هذه فيسمى (دية). ينظر الموضوع في أبوب الجنايات والبيوع الفاسدة من كتب الفقه.

(6) روي هذا التنويع عن سفيان الثوري، انظر تفسير الخازن 227/6/4، والبحر المديد 169/7.

ـ محرم محظور وهو سوء الظن بالله عز وجل، أو ظن ما يوجب نقصا بالإلهيات والنبوات، أو الظن حيث يخالفه قاطع، أو ظن السوء بالأخ المسلم؛

ـ مباح جائز وهو المتعلق بأمور المعاش، والمركوب لاكتشاف الحقائق وتحقيق العدل.

وقيل إن قوله تعالى: (إن بعض الظن إثم) يفيد أن الظان لا يأثم إلا إذا حكم بظنه أو عمل بمقتضاه، وما لم يتكلم فهو في فسحة، لأنه لا يقدر على دفع الخواطر التي يبيحها قول النبي ﷺ: «**الحزم سوء الظن**»[7]. وقال ابن عطية: «**وما زال أولو العلم يحترسون من سوء الظن ويسدون ذرائعه**»، وروى قول سلمان الفارسي رضي الله عنه: «**إني لأعد غراف قدري مخافة الظن**»، ثم روى قول النبي ﷺ: «**احترسوا من الناس بسوء الظن**»[8] «**وأن أبا العالية كان يختم على بقية طعامه مخافة سوء الظن بخادمه**»[9].

وقوله تعالى ﴿ولا تجسسوا﴾ أي بعضكم على بعض، والتجسس بالجيم: تفعّل من الجسّ باعتبار ما فيه من معنى الطلب كالتلمس، وهو التفتيش عن بواطن الأمور، يقال: جسَست الأخبار وتجسستها أي تفحصت عنها، ومنه الجاسوس. وهذا نهي آخر عن خصلة أخرى ذميمة: أن يبحث الناس على مخبآت أمور بعضهم؛

(7) حديث حسن أخرجه أبو الشيخ في الثواب عن عبد الرحمن بن عائذ؛ انظر الجامع الصغير 589/1.

(8) أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن عدي في الكامل، عن أنس رضي الله عنه، وهو ضعيف كما ذكر صاحب الجامع الصغير 40/1.

(9) المحرر الوجيز 148/15.

وهو دعوة إلى الدفع بالتي هي أحسن، وأن يكتفى بالظواهر الحسنة. وتقدم أنه قرئ (ولا تحسسوا) بالحاء بدل الجيم، واختلف هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين: فقيل هي بالجيم المنقوطة من الجس بالجيم ويكون بالسؤال، وبالحاء يكون بالاطلاع والنظر. فالمعنيان متقاربان، ولتقاربهما قيل لمشاعر الإنسان: الحواس والجواس ـ بالحاء والجيم ـ. وقال الأخفش: ليس تبعد إحداهما عن الأخرى لأن التجسس ـ بالجيم ـ البحث عما يكتم عنك، والتحسس ـ بالحاء ـ طلب الأخبار والبحث عنها. وقيل: إن التجسس ـ بالجيم ـ هو البحث، ومنه قيل: رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور؛ والتحسس ـ بالحاء ـ هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. وقال ثعلب: إنه بالحاء تطلبه لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره؛ والأول أعرف. وعن أبي عمرو ابن العلاء أن التجسس ـ بالجيم ـ ما كان من وراء، والتحسس ـ بالحاء ـ هو الدخول والاستعلام. وأكثر ما يقال التجسس ـ بالجيم ـ في الشر، والتحسس ـ بالحاء ـ في الخير، وهو التعرف من الحس والاستماع إلى حديث الغير، كما قال تعالى إخبارا عن النبي يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله﴾(10). وقيل معناهما واحد وهو طلب الأخبار، ولكن قد يتداخلان في الاستعمال. وقد ورد اللفظان معا متجاورين فيما صح عن النبي ﷺ أنه قال: **«ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا»**(11).

(10) سورة يوسف 87/12.

(11) يأتي تخريج الحديث كاملا في ص 194 الحاشية 13.

وفي الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ صعد المنبر فخطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن وقال: **«يامعشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عن عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»**[12]. قال نافع: ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال: **«ما أعظمك وأعظم حرمتك! والمومن أعظم حرمة عند الله منك»**[13]، وعن مجاهد أنه كان يقول: **«خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله»**، أي خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين وعيوبهم وما استتر من أمرهم، ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايبهم، أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله. وكما نهى القرآن الكريم عن ذلك فقد نهى عنه رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح، ومَنه ما ثبت في الصحاح عنه ﷺ أنه قال: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله ولا يحقره. التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه؛ إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا**

---

(12) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب الغيبة 194/5، الحديث 4880، والإمام أحمد 421/4، 424، عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، وانظر صحيح الجامع الصغير للألباني 1322/2.

(13) هذا طرف من حديث أخرجه ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما وينظر في كنز العمال 92/1 برقم 401 ؛ ويأتي نصه كاملا في ص 145.

إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[14] فالظن هنا وفي الآية هو التهمة؛ وفي تتبع عورات الناس والتجسس عليهم واستكشاف ما استتر من عيوبهم مفسدة حذر منها الشرع بطريق التخويف من عواقبها، واحترس منها السلف الصالح كما ثبت في روايات كثيرة، منها ما روي عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم»** فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها[15]. ومنها ما روي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»**[16].

وقال عبد الرحمن بن عوف: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة إذ تبين لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط؛ فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية ابن خلف، وهم الآن شُرَّب، فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾ وقد تجسسنا؛ فانصرف عمر وتركهم.

وفي رواية أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ومعه عبد الرحمن بن عوف ذات ليلة يعُسان، فبانت لهما نار فاستأذنا ففتح الباب فإذا رجل على يده قدح، ومعه امرأة تغني؛ فقال عمر:

---

(14) هذا الحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة في النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه.. ح: 5143، وأخرجه في مواضع أخرى من الجامع الصحيح بروايات أخر؛ وأخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها عن أبي هريرة كذلك، ح: 2563؛ وله روايات عند الأئمة: مالك، وأحمد، وأبي داود، والترمذي.

(15) رواه أبو داود في السنن، عن معاوية.

(16) أخرجه الترمذي في كتاب البر، ح 2032، وأبو داود في كتاب الأدب، الحديث 4868. وأخرجه البيهقي وسعيد بن منصور عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ـ وأنت بهذا يافلان! فقال:

ـ وأنت بهذا يا أمير المومنين! قال عمر:

ـ فمن هذه منك؟ قال:

ـ امرأتي، قال:

ـ فما في هذا القدح؟ قال:

ـ ماء زلال؛ فقال للمرأة:

ـ وما الذي تغنين؟ فقالت:

تطاوَلَ هذا الليلُ واسْودَّ جانِبُه
وأَرَّقَني أَنْ لا خليلَ أُلاعِبُهْ
فوالله لولا اللهُ أُراقِبه
لزُعزِعَ مِن هذا السرير جَوانبُه
ولكنَّ عقلي والحياءُ يَكُفُّني
وأُكرِمُ بَعْلِي أن تُنال مَراكِبُه

• ثم قال الرجل:

ـ ما بهذا أمِرنا ياأمير المومنين ! قال الله تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾، قال: صدقت[17].

وفي قوله تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ نهيٌ عن الغيبة، وقد فسرها الشارع بوضوح، كما جاء في حديث أبي هريرة

(17) قال الإمام القرطبي تعليقا على الرواية: لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل، لأن عمر لا يقر على الزنى، وإنما غنت بتلك الأبيات تذكارا لزوجها، وأنها قالتها في مغيبه عنها. والله أعلم.

رضي الله عنه قال: قيل يارسول الله، ما الغيبة؟ قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أفرايت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[18]. وفي حديث آخر: «**الغيبة أن تذكر المومن بما يكره. قيل: وإن كان حقا؟ قال: إذا قلت باطلا فذلك هو البهتان**»[19]. والغيبة لغة مشتقة من غاب يغيب، ومن الاغتياب، كالغيلة من الاغتيال وغابه واغتابه كغاله واغتاله؛ وهي ذكر السوء في الغيبة، أو هي القول بالعيب في ظهر الغيب، وتستعمل في المكروه. وقد نفر عنه القرآن الكريم غاية التنفير في قوله تعالى:

﴿أيحب أحدكم أن ياكل لحم أخيه ميتا﴾، ففيه بيان كراهية الكلام في الآخرين كما يكره الإنسان وينفر من أكل لحوم الجيفة، إيغالا في تصوير بشاعة الغيبة وفحشها وإنكار الشرع والذوق السليم لها. وبما أن أحدا من الناس لا يحب أكل جيفة أخيه عقّب ذلك بقوله تعالى: ﴿فكرهتموه﴾ بمعنى: قد استبشعتم وكرهتم أكل لحم الميت، فالمحقق أيضا أن تكرهوا وتستبشعوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين، وعن قتادة: «**كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي**»[20].

وقد ذكر المفسرون له ثلاثة معان:

---

(18) حديث صحيح، أخرجه الإمام مسلم في البر والصلة، باب تحريم الغيبة 214/16 الحديث 2589 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا؛ ورواه أيضاً الترمذي في الجامع، وأبو داود في السنن.

(19) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والإمام مالك والإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر صحيح الجامع الصغير 447/1.

(20) الكشاف 567/3 – 568.

أحدها: فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغيبة،
والثاني: فكرهتم أن يغتابكم الناس فاكرهوا غيبة الناس،
والثالث: أن لفظه خبر ومعناه أمر، أي اكرهوه[21].

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ عطف على ما تقدم من الأوامر والنواهي: إما على قوله: ﴿فكرهتموه﴾ وإما على قوله: ﴿اجتنبوا .. ولا تجسسوا﴾، بمعنى: اجتنبوا، ولا تجسسوا، واتقوا.. ومعنى التقوى ومنطلقاته وأبعاده وصفات المتقين وجزاؤهم كل ذلك تقدم بيانه في أول السورة بما يغني عن تكراره ههنا[22].

وقوله عز وجل: ﴿إن الله تواب رحيم﴾ تقرير غايته الأمر منه سبحانه وتعالى بأن يتقي الناس ربهم بترك ما أمروا باجتنابه والندم على ما صدر منهم من المخالفات والعزم على التزام الطاعات، فإنهم إن تابوا واتقوا تقبل الله توبتهم وأنعم عليهم بثواب المتقين التائبين[23].

في التذوق الفني للآية:

تبدأ هذه الآية الكريمة بالنداء وهو إنشاء طلبي وارد على حقيقته إذ المراد به طلب العزيز الرحيم عباده أن يقبلوا عليه بكل جوارحهم ليصغوا إلى توجيهاته الربانية الرحيمة ويتلقوا تعليماته الآمرة الناهية بالاستجابة والامتثال للأوامر، والتوقف والانتهاء عن

(21) القرطبي 336/16/8د

(22) راجع الصفحة 24 – 26 أعلاه.

(23) راجع حديث التوبة في ص 178.

النواهي؛ لذا نرى الأوامر والنواهي تتوالى في هذه الآية الكريمة بصيغ شتى وآليات خِطابية متنوعة تتآلف فيه أساليب الحض مع الإخبار مع التقرير مع الاستفهام..

ونجد في قوله سبحانه وتعالى ﴿كثيرا﴾ إبهاما لغاية هي إيجاب التأمل والاحتياط في كل ظن حتى يعلم الظن الممارس من أي قبيل هو؛ وقوله تعالى: ﴿إن بعض الظن إثم﴾ استئناف خبري لكنه تنبيه وتحذير من الوقوع في حكم الجملة الخبرية الذي هو الإثم.

وفي إعراب كَلِم الآية وجملها عون على إدراك الأبعاد اللغوية الدقيقة والمعنوية الدلالية والفنية الجمالية للخطاب القرآني، غير أنه ليس في هذه الآية على المستوى الإعرابي شيء غامض أو دقيق يحتاج إلى طويل وقوف:

فالجمل العشر المكونة منها الآية لا محل لها من الإعراب سوى واحدة هي قوله تعالى: ﴿أن يأكل لحم أخيه ميتا﴾ فهي فعلية والمصدر المسبوك من الحرف المصدري (أن) والفعل (يأكل) في محل نصب مفعول به للفعل (يحب)، و(ميتا) منتصب على الحال من اللحم أو الأخ؛ وهي ثمان جمل فعلية وجملتان اسميتان؛ والأسماء في الآية سبعة عشر، مواقعها في الإعراب بين فاعل أو مفعول أو اسم(إنّ) أو صفة أو مضاف إليه ما قبله؛ والأفعال فيها سبعة بين الماضي في موضع واحد، والأمر في موضعين، والمضارع في أربعة مواضع، وهناك فعل ثامن مقدر في النداء بالحرف (يا) القائم مقام (أدعو)؛ وأما الضمائر فمنها البارز كواو

الجماعة في(اجتنبوا)، والواو والهاء في (فكرهتموه)، ومنها المستتر في (يأكل)؛ وأما الحروف الرابطة والعاملة في الآية فثمانية فيها العاطف (الفاء والواو)، وفيها المؤكد الناصب (إن) وفيها الجار (من)، وفيها المميز للخطاب(الكاف) في (بعضكم) و(أحدكم).

والمتأمل في قوله تعالى: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا﴾ يجد فيه تمثيلا وتصويرا لما يناله المغتاب من عِرض أخيه الغائب على أفحش وجه وأفظعه؛ فالتشبيه هنا لصورة مغتاب يتناول بالوصف الحاضر شخصا غائبا، بصورة منهمك في قضم لحم جسد حاضر لروح غائبة، والجامع المقدر فظاعة العمل وبشاعته والاختلاس باستغلال الغيبة في كل، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، وقد قال رسول الله ﷺ: «**ما صام من ظل يأكل لحوم الناس**»[24]، فشبه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم.

وإسناد الفعل (يحب) إلى (أحد) لأجل التعميم وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة. والاستفهام في (أيحب أحدكم) لا يراد به طلب الفهم فهو مجازي لا حقيقي، لأن الاستفهام على حقيقته لا يتصور من الله العليم الحكيم فهو سبحانه منبع الفهم وأصل المعرفة وكمال العلم، وإنما هو استفهام تقريري المراد به تقرير عدم محبة أحد أن يفعل ذلك الفعل الشنيع.

أما الفاء في قوله تعالى: ﴿فكرهتموه﴾ فهي إما جواب مقدر عن صيغة الاستفهام في قوله تعالى: (أيحب)؛ وإما هو من باب

(24) رواه أبو داود في السنن.

تعلق المسبب بالسبب وترتبه عليه، كما يقول القائل: جاء فلان ماشيا فتعب لأن التعب متسبب عن المشي، والكراهية متسببة عن الموت بحيث يكره المرء أن يبيت في مكان فيه ميت فكيف يأكل منه، وإذن فالكراهية شديدة، فكذلك حال الغيبة. ويمكن أن يحمل الخطاب على التوبيخ، وكأن المخاطبين أجابوا عن الاستفهام فقالوا: لا، فقيل لهم: (فكرهتموه)، ويقدر في الكلام: فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي نظير ذلك. وأما الضمير المفعول في هذه الجملة فيعود:

ـ إما على (الأكل) وهو المصدر المؤول من قوله تعالى: (أن ياكل) وهو الظاهر، وتقديره: فكرهتم الأكل؛

ـ وإما على اللحم، فالتقدير: فكرهتم اللحم؛

ـ وإما على الميت، فالتقدير: فكرهتم الميتة، وفي هذا مزيد مبالغة في التحذير، لأن اللحم إذا تغير وأروح وأنتن تزداد منه الكراهية والنفرة، فكذلك ينبغي أن ينظر إلى الغيبة.

وفي الصيغة مبالغات:

فإنه لم يُقتصَر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم مَطلق الإنسان بل جُعل الإنسان أخا للآكل، ولم يقتصر على أكل لحم الأخ بل جعل ميتا.

وقوله تعالى: (لحم أخيه) أبلغ في المنع لأن العدو قد يحمله الغضب على أكل لحم عدوه.

وقوله عز وجل: (ميتا) أبلغ في الزجر؛ وفي السنة ما يصور شناعة ذلك وبشاعته ووخيم عاقبته: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم ـ وفي نسخة: وصدورهم ـ فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**»(25).

وفي (تواب) من قوله تعالى: ﴿إن الله تواب رحيم﴾ مبالغة إما لأنه سبحانه وتعالى بليغ في قبول التوبة إذ يجعل صاحبها كمن لا ذنب له، وإما لكثرة المتوب عليهم، وإما لكثرة ذنوبهم.

ومن اللطائف الفنية في هذه الآية الكريمة أن الله عز وجل ختم الآية قبلها بذكر التوبة فقال: ﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾، وقال في ختام هذه: ﴿إن الله تواب رحيم﴾؛ ولما كان الابتداء في الآية السابقة بالنهي في قوله ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾ ذكر في ختامها النفي الذي هو قريب من النهي، ولما كان الابتداء في هذه الآية بالأمر في قوله ﴿اجتنبوا﴾ ذكر في ختامها الارتياب الذي هو قريب من الأمر.

مستخلصات هادية:

المومن الحق الذي يبتهج بصفة الإيمان ويعتز بها حين يناديه ربه الكريم المنان بها يأتمر بالقرآن فيجتنب الظن السيء، وينتهي

(25) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في الغيبة 269/4 ح 4878؛ وأحمد في المسند 224/3، ح 13364.

عن التجسس، وعن الاغتياب، ويشعر بقشعريرة ووجل وارتياب أمام هذا التشبيه البليغ المؤثر الذي يُلحَق فيه المغتاب بأكل لحم الميت في البشاعة والبذاءة، ثم لا يجد في نفسه سوى الانضباط بملازمة تقوى الله ومداومة التوبة التي ترغبه فيها آياته البينات بتأكيد وصف الخالق جل علاه بأنه كثير التوبة على التائبين شديد الرأفة والرحمة بالعباد المتقين.

فأما الظن فحكمة الأمر باجتنابه أن بعضه إثم، ولكن أي الظنون يكون إثما؟ وما دام النهي منصبا على أكثر الظن، والقاعدة أن بعض الظن إثم، فتتقرر أمور:

أولها أن من الظن ما يوقع في الإثم أي في المعصية،

والثاني انصباب النهي على أن يظن المسلم بأخيه المسلم شراً أو سوءاً،

والثالث التحذير من أن يسمع المؤمن من أخيه المؤمن كلاما لا يريد به سوءا، أو يدخل مدخلا لا يريد به شرا، فيراه أخوه فيظن سوءا أو شرا، لأن بعض الفعل قد يكون في الصورة قبيحا وفي نفس الأمر لا يكون كذلك، لجواز أن يكون فاعله ساهيا أو يكون الرائي مخطئا.

والرابع الاحتراز من العواقب السيئة والوخيمة لسوء الظن بالناس، فالنهي الوارد بصيغة الأمر باجتنابه يفيد التحريم لما ينجم عن تفشيه بين أفراد المجتمع من القبائح، وما ينشأ عنه من العداوات والحزازات وربما الفتن والاضطرابات الاجتماعية والسياسية.

والخامس أن الظن قد يكون جائزا مباحا في المجال الذي يقتضيه؛ كأن يبني الحاكم حكمه على قول الشهود، ويبرئ الذمة عند عدم الشهود. فقوله تعالى: ﴿إن بعض الظن إثم﴾ بعد قوله عز وجل: ﴿اجتنبوا كثيرا من الظن﴾ إشارة إلى الأخذ بالأحوط، لكن في نهيه تعالى عن الكثير من الظن إخراج للظنون التي تبنى عليها الخيرات[26]؛ وقد مثل الإمام الرازي رحمه الله تعالى لهذا الأمر بسلوك الطريق المخوفة، فقال إنه لا يكون فيه دائما قاطع طريق، لكن السالك لا يسلكه ـ لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين ـ إلا إذا تعين فيسلكه مع رفقة، قال: «**كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ**»[27]. ومن أجل ذلك كان السلف الصالح يتحرزون من الظن ويحتاطون لأنفسهم.

وأما التجسس فمرض اجتماعي خطير، ونقيصة مذمومة وسلوك محرم شرعا؛ وهو على المستوى الفردي بين الأشخاص كاشف للعورات مضر بالمودات، وعلى المستوى الاجتماعي بين الجماعات فاضح للعيوب مبدد للألفة والتعاون، وعلى المستوى السياسي بين الدول أخطر وأوخم عواقب مفسد للعلاقات الدولية. والقاعدة الإنسانية أن مستور الحال لا يجوز ولا يعقل التجسس عليه، فذلك محرم شرعا، أما المشتهر بالمعاصي كشرب الخمر ونحوه فالتجسس عليه مطلوب أو واجب فقهيا[28]؛ وهذا التجسس

---

(26) وقد نسب إلى رسول الله ﷺ: «ظنوا بالمؤمن خيرا»، أورده الرازي في (مفاتيح الغيب) 133/28/14، ولم أجده في كتب السنة وإن كان معناه صحيحا ومشروعا، وفي التمهيد: وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**حرم الله من المؤمن: دمه وماله وعرضه، وأن لا يُظن به إلا الخير**»..

(27) مفاتيح الغيب 133/28/14.

(28) قاله ابن عرفة، ينظر البحر المديد 169/7.

المطلوب إنما يكون بالنسبة لشارب الخمر بالشم ونحوه ليقام عليه الحد، لا بدخول داره لينظر ما فيها من الخمر ونحوه فإنه منهي عنه.

والحاصل أنه يجب ترك البحث عن أخبار الناس والتماس المعاذر حتى يُحسن الظن بالجميع، فإن التجسس هو السبب في الوقوع في الغيبة، ولذلك قدمه الحق تعالى على النهي عن الغيبة حيث قال: ﴿**ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا**﴾.

وكما يحرم التجسس تحرم الغيبة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في تجريح الشهود، وفي التعريف لمن استنصح في الخِطبة، وعند اتقاء شر المسيئين أو فحش المفسدين؛ كقوله ﷺ لما استأذن عليه رجل فاجر: «**ائذنوا له، بئس أخو العشيرة**»[29]؛ وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «**أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»[30]، وكذا ما جرى مجرى ذلك؛ أما ماعدا تلك المستثنيات فعلى التحريم الشديد والزجر الأكيد، ولهذا شبه الله تعالى الغيبة بأكل اللحم من الإنسان الميت، لمزيد التنفير عنها والتحذير منها فقال سبحانه: ﴿**أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه**﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس**»[31].

---

(29) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

(30) رواه مسلم في كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، ورواه أبو داود في نفقة المتبوعة والنسائي في تزوج المولى العربية وأحمد في مسند فاطمة بنت قيس.

(31) القرطبي8/16/335.

وتؤكد السنة هذا الحكم، فقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»[32]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[33]. وعنه ﷺ أنه قال: «**الغيبة أشد من الزنا، لأن الزاني يتوب فيتوب الله عليه، والذي يغتاب يتوب فلا يتاب عليه حتى يستحل**»[34]. وأنى له أن يستحل إذا مات من اغتيب أو أبى!!

قال ابن عطية: «**روي أن رجلا قال لابن سيرين: إني قد اغتبتك فحللني. فقال له ابن سيرين: إني لا أحل ما حرم الله**»[35]. ومع ذلك فإن وجد المغتاب مدفعا لحاجته وأسلوبا غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب.

وللغيبة صور مختلفة وأساليب متنوعة عرضها ابن عجيبة في البحر المديد حين تناول قول الإمام النووي: «**الغيبة كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم عاقل، وهو حرام**»، فأشار إلى أن الغيبة تتناول اللفظ الصريح، والكناية، والرمز، والتعريض، والإشارة بالعين والرأس، والتحكية بأن يفعل مثله كالتعارج، أو يحكي كلامه على

(32) أخرجه البخاري ومسلم.

(33) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في الغيبة: 270/4 الحديث 4882 وإسناده صحيح.

(34) حديث صحيح أخرجه الأئمة: مالك، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وأحمد عن أبي هريرة؛ وانظر الجامع الصغير 447/1.

(35) المحرر الوجيز 147/15 ـ 152.

هيئته ليضحك غيرَه، فهذا كله حرام إن فهم المخاطب تعيين الشخص المغتاب، وإلا فلا بأس؛ ثم بين أن لا فرق بين غيبة الحي والميت، وأن السامع للغيبة كالمغتاب، إلا أن يغير أو يقوم. ومن أروع وأبدع ما قيل في الغيبة ما أورده ابن عجيبة إذ روى مقولة النسفي: إن غيبة الخلق إنما تكون بالغيبة عن الحق؛ ثم ذكر أن الغيبة صاعقة الدين، فمن أراد أن يفرق حسناته يمينا وشمالا فليغتب الناس، وروى هذا التمثيل المعبر عن بشاعة الغيبة وخطورتها: «**مثل صاحب الغيبة مثل من نصب منجنيقا فهو يرمي به حسناته يمينا وشمالا، شرقا وغربا**»(36).

ولقد ذكر الله عز وجل في الكتاب العزيز للغيبة ثلاثة أوجه: الغيبة، والإفك، والبهتان، وكلها محرمة منهي عنها محذور منها ومن مغبتها:

فأما الغيبة فأن تقول في أخيك ما هو فيه، قال تعالى في الآية موضوعنا: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا﴾.

وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه كان فيه أو لم يكن، قال تعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم، بل هو خير لكم، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾(37).

وأما البهتان فأن تقول عنه ما ليس فيه، قال تعالى: ﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا

(36) البحر المديد 169/7.

(37) سورة النور 11/24.

وهو عند الله عظيم، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مومنين﴾[38].

ويدل قوله تعالى: ﴿بعضكم بعضا﴾ في سورة الحجرات على وجوب حفظ أعراض الناس في غيبتهم؛ وفي التشبيه الوارد في الآية إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه، وهذا من باب القياس الظاهر، فإذا لم يحسن أكل لحوم الناس لم يحسن النيل من أعراضهم بطريق الأولى، فمن تنقص مسلما أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حيا، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتا، وكل ذلك إنما هو للمؤمن، أما الكافر فلا نهي عن فضح معايبه، بل يعلن ويذكر بما فيه وكيف لا والفاسق يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة، فأهل السوء والفسق المجاهرون بذلك لنا أن نظن فيهم ما يوافق ما يظهر منهم، وأن نتحدث عنهم بما يحذر منهم، ولا يعد ذلك اغتيابا.

وهل الغيبة من الكبائر أو من الصغائر؟ خلاف: فالبعض يراها من الكبائر، والبعض يرجح أنها من الصغائر لعموم البلوى بها، ومن أجمل ما قيل في ذلك: «**هي فاكهة القراء، ومراتع النساء، وبساتين الملوك، ومزبلة المتقين، وإدام كلاب الناس**»[39].

---

(38) سورة النور 24/15 – 17.

(39) البحر المديد 7/169؛ وعلق عليه معلق في حاشية النسخة الأم بقوله: «غريب هذا الترجيح، وأغرب منه دليله، فالأحاديث الكثيرة الصحيحة تفيد أن الغيبة من الكبائر بل من أكبرها بل من أربى الربا وأشد من ست وثلاثين زنية، والزنى والربا من الكبائر، وأيضا هي من حقوق الخلق التي لا تكفر إلا بالاستحلال، فكيف تكون من الصغائر!»

وقد يتساءل جان على نفسه جريرة الغيبة عن طريق التوبة منها؟

فطريقه أن يقلع عن خلق الاغتياب، ويندم على ما صدر منه، ويعزم على أن لا يعود إليه أبدا، وبعضهم يشترط أن يتحلل من الذي اغتابه، وآخرون لا يشترطون التحلل لأنه ربما يؤذيه، وإنما يكتفي بأن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك.

والعبرة على كل حال أن على المرء أن يتقي ما نهي عنه ويتوب مما فرط منه؛ ففي ترك الإنسان ما نهي عنه أو أمر باجتنابه، والندم على ما صدر منه من المخالفة للأوامر أو الإتيان للنواهي توبة مجابة وتقوى نافعة، وإن من اتقى الله وتاب إلى الله تقبل الله توبته وأنعم عليه بثواب المتقين التائبين، وهو سبحانه يقبل التوبة ويحب التوابين ويفيض الرحمة على العباد، حيث يجعل التائب كمن لا ذنب له، ولا يخص تائبا دون تائب، بل يعم الجميع وإن كثرت ذنوبه، إبقاء منه تعالى للعبد وإمهالا وتمكينا له من التوبة.

في محراب الآية :

تطالعنا هذه الآية الكريمة بذلك النداء المحبب إلى القلوب الباعث على الطمأنينة والبشر والانقياد لأمر الرحمن الرحيم جل جلاله وعز ثناؤه، فنسارع إلى حسن التلقي والاستجابة، ونجتنب الكثير من الظنون التي تهدم حصن الاستقامة والرشاد، وتنشر الضغينة والفساد؛ وإيحاء هذا التعبير للضمير الإنساني هو اجتناب أي ظن سيء، لأنه مضرة لصاحبه، مفسدة في مجتمعه.

والقرآنُ الكريم يريد بهذا تطهير الضمير الإنساني من داخله، وتحصينه من أن يلوث بالظن السيء فيقع في الإثم، ليبقى نقيا من الشوائب بريئا من الهواجس آمنا من الشكوك.. ويعيش المجتمع مطمئنا بريئا من الظنون، غير ملوث بالشكوك، لا يعكره قلق ولا توجس.

والحياة في ظل هذا التوجيه الرباني تقوم على مبدأ أمين في التعامل، وتتسيج بسياج نظافة الفكر ونقاء النفس، فتضمن حقوق الناس الذين يعيشون في المجتمع، ويعيشون أبرياء مطمئنين مصونة حقوقهم وأعراضهم، موفورة حرياتهم واعتباراتهم؛ ومتى طبقت مثل هذه التوجيهات الربانية المؤسسة للمجتمع الراقي المطمئن تحت راية الإسلام، وفي بلاد الإسلام، بل في أي بلاد من أرض الله، أحس الناس حقا بالأمن والأمان، وكانت البلاد أوفر أمنا وأكثر صيانة لحقوق الإنسان، وكانت المجتمعات أسعد وأنعم.

فلماذا إذن يعقد المرء قلبه على الشر، ويحكم على سلوك الغير أو مذهبه بالسوء، ويرتب عليه الأحكام الصادرة والنتائج المبنية!! إن الإنسان مسؤول محاسب على قوله وعمله، لكنه لا يؤاخذ بالخواطر العابرة، ولا بأحاديث النفوس المراودة، فإذا لم يستقر في النفس ظن سيء ولم يُبنَ عليه حكم ولا سلوك فذلك معفو عنه باتفاق، لأنه لا اختيار للإنسان في وقوع ذلك له، ولا طريق له إلى الانفكاك عنه بدلالة قول النبي ﷺ: **«إذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فلا تبغ وإذا تطيرت فامض»**[40]؛ وهذا الموضوع من دلائل العظمة والروعة

(40) بعض حديث أخرجه أبو داود، وابن ماجة عن جابر رضي الله عنه، وقال في مجمع الزوائد: إسناده صحيح على شرط البخاري؛ وينظر في التمهيد 125/6، ومجمع الزوائد/81، وفي كنز العمال 497/3 الحديث 7585؛ ويأتي نصه كاملا وشيكا. انظر ص 147.

في التربية القرآنية الهادفة إلى نشر الألفة والصفاء بين أبناء البشر، ولقد تربى الصحابة وهم جيل القرآن بهذه التربية النبيلة، فكانوا النموذج العملي الأمثل لتأسيس العلاقات الاجتماعية الحضارية والبانية.

إن المجتمع الإنساني في المنهج الإسلامي يبنى على الألفة والمودة وحسن النية وصدق الطوية والتحصن ضد الأحقاد والضغائن والوشوشات المؤدية إلى التنافر والتباغض والتفكك المجتمعي، وإن سوء الظن بالناس والتجسس على خباياهم والحديث عنهم في غيبتهم بما يتأذون به، لهي أمراض فتاكة وأعراض سلبية تجدر معالجتها بتخليق الحياة الإنسانية، وتربية الأجيال الصاعدة على الآداب الإسلامية والتوجيهات القرآنية والسيرة النبوية؛ وإن الانطلاق من حسن النية مع الناس، وحمل كلامهم على صدق الطوية، والبحث عن محامل الخير، لمن المبادئ السامية للمجتمع الإسلامي: عن أمير المومنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرا وأنت تجد لها في الخير محملا**».. ومما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قوله: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «**ما أطيبك وأطيب ريحك! ما أعظمك وأعظم حرمتك! والذي نفس محمد بيده لحرمة المومن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه وأن يُظنّ به إلا خيرا**»[40]، وإنما أمر الناس أن يحكموا بالظواهر ويجتنبوا تتبع الخفايا ويتركوا السرائر لله سبحانه

(41) تقدم تخريج الحديث، راجع ص 128 الحاشية 12.

وتعالى، وفي ذلك مسلك آخر لتحقيق الأمن الاجتماعي والاستقرار النفسي لأفراد المجتمعات وترك المجال الأوسع للترفع عن الصغائر والاشتغال بالعظائم؛ فقد أُتي سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه برجل فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا، فقال عبد الله: «**إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يزهر لنا شيء نأخذ به**»[42].

وليس يتعلق الأمر بالأفراد والعامة فقط بل إن ولاة الأمر في الأمة، ورائدي الجماعات ورؤساء الهيئات والمؤسسات والحركات والجمعيات وكل من يتولى شيئا من أمر هذه الأمة في القطاعات العامة والخاصة كلهم معنيون مأمورون شرعا باجتناب الشكوك والظنون بمن يتولون أمرهم أو يشرفون على تسيير شأنهم، فقد يقعون في الإفساد من حيث يريدون الإصلاح، لأن سوء ظن الراعي برعيته قد يؤدي إلى الفتن والاضطرابات والمفاسد، ففي سنن أبي داود عن النبي ﷺ قال: «**إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم**»[43].

إن هذه الآية الكريمة تقيم في هذا المجتمع الإنساني سياجا حول حرمات الأشخاص وكراماتهم وحقوقهم وحرياتهم، وتعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم ويطهرون ضمائرهم ويحفظون مجتمعهم من تلك السلبيات، في أسلوب توجيهي عملي مؤثر عجيب، يجعل المذنب يأتي ولي الأمر تائبا معترفا نادما متطهرا، مثلما فعل (ماعز) لما اعترف مقرا طائعا مختارا بالزنى، وألح على إقامة الحد عليه ليتطهر

(42) إسناده صحيح ورجاله ثقات، أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم 4090.

(43) تقدم تخريجه، راجع ص 129 حاشية 15.

في الدنيا، فأقام رسول الله ﷺ عليه الحد، وسمع ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه في (ماعز): ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجم رَجم الكلب؛ ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار، فقال: **«أين فلان وفلان؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار. قالا: غفر الله لك يارسول الله وهل يؤكل هذا؟ قال: ﷺ فما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلا منه؛ والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»**[44].

إن سعادة المرء في النظر إلى الناس بعين الجمع الطيب، ومعاملتهم بروح الجماعة الطاهرة وحسن الظن بهم أفرادا وجماعات، والتماس العذر لهم في كل ما يصدر عنهم والاقتناع بأن المقامات والمنازل والأحوال متنوعة؛ وفي الحديث المتقدم: **«ثلاثة دبت لهذه الأمة: الظن والطيرة والحسد. قيل: فما النجاة؟ قال: إذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض وإذا حسدت فلا تبغ»**[45].

(44) أخرجه أبو داود في كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، الحديث 4405 عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في كنز العمال 5/443 ح 13553.

(45) سبق تخريجه في الحاشية رقم 39. ص 144.

7

الوحدة والمساواة والتعارف أصل العلاقة بين البشر والاستقامة أساس التفاضل بين الناس

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(13)

مدخل :

نزل القرآن الكريم وحرية الإنسان في المجتمعات البشرية مهدورة بالرق والعبودية، وكرامته ممتهنة بالاحتقار والطبقية، والناس يتعالى بعضهم على بعض ويتفاخرون إما بكثرة الأولاد والأتباع والعبيد والمتاع، وإما بالنسب وعراقته، وإما بالجاه والمركز في القبيلة وقوته، وإما بالثروات وتبذيرها؛ ولطالما جر ذلك على الأفراد صورا من الظلم والقهر والمهانة، وجر على المجتمعات ويلات الحروب وكوارث الدمار، ولطالما قوض أركان دول، وحطم شعوباً وهدم حضارات!

والناس على اختلاف أنسابهم وألوانهم وتنوع مشاربهم وتوجهاتهم يضربون في الأرض ويجوبون الآفاق طمعا في توفير

السعادة والطمأنينة، وسعيا إلى تحقيق التعارف والألفة وتبادل المصالح والمنافع. لكن منهم من يسلك سبيل الرشد والسداد والمصلحة، ومنهم من ينهج نهج الضلال والزيغ والمفسدة، ومنهم من يغتر بالحال ويغفل عن المآل.

وظلت مظاهر الانحراف في السلوك الإنساني سائدة إلى أن تأسس المجتمع الجديد في مدينة الرسول ﷺ وتكونت الروابط المتينة بين أفراد المجتمع على أسس ربانية نزل بها الوحي تدريجيا ومارسها المسلمون عمليا بالاستجابة الفورية لما كان يتلقاه الرسول ﷺ عن رب العزة سبحانه وما كانت تجري سيرته ﷺ به فعلا بين الناس وما ينصح به الناس على مختلف مشاربهم وتوجهاتهم.

وإذ كان لا بد للإنسان أن يتعامل مع أخيه الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وأن ينشئ الناس العلاقات بعضهم مع بعض، وقد تأسس مجتمع جديد يتعايش فيه المتآلفون المنسجمون عقديا ودينيا مع بعضهم، ويحسنون التجاور مع من يختلفون معهم دينا واعتقادا، أو نسبا وعرقا، أو لونا وسحنة، أو ثراء وامتلاكا؛ وإذ لم يكن بد من وضع الأسس القوية للمجتمع الإنساني بمفهومه الصحيح؛ فقد جاء الإسلام بتلك الأسس وأقامها على مبادئ ربانية وحدد للناس ضوابط يقيمون عليها كيانهم، وأسسا صلبة يتعاملون على ضوئها فيما بينهم، وقواعد قويمة تحول بينهم وبين تسلل معاول الهدم إلى مجتمعاتهم من مثل التفاخر بالأحساب والأنساب أو التعالي بالجاه والأموال؛ وحذر كل مؤمن من أن يغتر بإيمانه، أو يتعالى بسبقه غيره إلى اعتناق دينه، أو يتباهى على أحد بهداية أو يتسامى بمركز أو ولد أو درجة أو لون أو نسب.

وحينما أعلن الله عز وجل بحكمته أنه سبحانه وتعالى فضل الرسل والنبيئين بعضهم على بعض، وقضى بتفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، وأنه جل علاه جعل للرجال فضلا على النساء بما كلفوا به دونهن من كد وسعي ونفقة ورعاية ومسؤولية فقال سبحانه: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض.﴾ الآية[1] فإنه سبحانه وتعالى أوجب على الأنبياء من العبادة والتقرب ما لم يوجبه على غيرهم، وحذر الناس كل الناس من الاغترار بحال والاعتداد بفضل، وقيد الفضل في الرزق بالكسب الطيب والإنفاق الحلال وعدم الإسراف والتبذير، وفرض على الأغنياء أن يراعوا حقوق الفقراء في أموالهم، وحث الأزواج (القوامين) على أن يعنوا بزوجاتهم ويتحملوا مسؤولياتهم، وأوصاهم بهن خيرا؛ وذلك كله يدخل في باب الشكر الذي هو لازم النعمة.

ومن أجل الاتعاظ والاعتبار وتوجيه الناس إلى الرشد والخير والصواب ضرب الله عز وجل في القرآن الكريم أمثلة متعددة على فساد نهج الاغترار وسوء عاقبته على الإنسان المغرور، فحكى قصة اغترار قارون بكنوزه في سورة القصص بأسلوب زاجر، وحكى قصة أصحاب الجنتين في سورة الكهف بأسلوب واعظ، وحكى قصة طغيان فرعون وجبروته في سور كثيرة وبصور تعبيرية متنوعة هادفة..

وجاء في هذه الآية الكريمة ـ الثالثة عشرة من سورة الحجرات ـ تنبيه للإنسان إلى وحدة أصله على تفرق شعوبه وقبائله، ووحدة إمكاناته واستعداداته على تعدد أوصافه وتنوع مكتسباته، وضرورة

(1) سورة النساء 34/4.

التعارف بين البشر ذلك التعارف المؤدي إلى التآلف والتوادد المقصي لأنواع التعالي والتفاخر والتعاظم، وتحديد مقياس التفاضل الحق بين الناس وأساسه وهو التقوى التي تعني الاستقامة على ما يحقق للإنسان سعادته في الدارين وراحته وطمأنينته في الحياتين، المقياس الذي يبعث على التنافس الحميد ويحفظ من التحاسد البغيض. وكانت الآية بذلك تبيانا لما تقدم قبلها في السورة نفسها وتقريرا له.

أسباب النزول:

نزلت هذه الآية على الأصح بالمدينة ككل آيات السورة، وقيل إنها نزلت في مكة دون بقية الآيات، لكن من قال ذلك فإنما اغتر بأنها بدئت بـ﴿ياأيها الناس﴾ دون ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾، معتبرا أن غالب الخطاب بـ﴿ياأيها الناس﴾ إنما كان في القرآن المكي، وليس ذلك مطردا في نزول القرآن كله.

وروي أنها نزلت في غلام أسود تولى رسول الله ﷺ غسله ودفنه.

وروي أنها نزلت في غضب بعض وجهاء القوم لما علا سيدنا بلال رضي الله عنه ظهر الكعبة يوم فتح مكة ليؤذن.

وربطت بعض الروايات بين الآية وبين السبب المروي في نزول الآيات قبلها(2)،

---

(2) أنظر هذه الروايات في أسباب النزول للنيسابوري 295، وفي الكشاف 569/3، والمحرر الوجيز 153/15، وتفسير القرطبي 340/16/8، وتفسير الخازن 229/6، والبحر المديد 174/7. وراجع أسباب النزول في الفصول السابقة من هذا البحث.

وروي أيضا أنها نزلت في قوم يعرفون ببني بياضة رفضوا أن يزوجوا بنتا لهم أحد مواليهم احتقارا له واستهانة به واستعلاء عليه بأحسابهم.

وجميع الروايات على اختلافها وتنوعها تريد إلى الاستدلال بالآية على أن الوحي يزجر الناس عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء، ويحث على تقوى الله عز وجل، ويؤكد أن المدار على التقوى كما يفيده مضمون هذه الآية الكريمة، وهي محكمة لم يقل أحد بنسخها.

القراء ات:

إنما ورد تنوع القراءة لهذه الآية الكريمة في لفظتين اثنتين: ﴿لتعارفوا﴾، و﴿إن أكرمكم﴾:

فالأول قرئ (لتَعارفوا)، و(لتتعارفوا)، و(لتَعْرِفوا) بفتح التاء المخففة، و(تَّعارفوا) بإدغام إحدى التاءين في الأخرى؛ وقرأ ابن مسعود: (لتعارفوا بينكم وخيركم عند الله أتقاكم).

وأما الثاني فقرئ بالفتح (أن أكرمكم)، فيكون تعليلا للنهي عن التفاخر والتعالي بالأنساب، أو تعليلا للتعارف الذي بين أنه الغاية من خلق الناس من أصل واحد وتفريقهم إلى شعوب وقبائل، كأنه قيل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم.

من أجل التبيُّن والبيان:

تتضمن هذه الآية الكريمة نداء للإنسانية قاطبة ﴿ياأيها الناس﴾ نداء ينبه الناس إلى وحدة أصلهم وتشابه حالهم من حيث الخلق

والتكوين، وإلى حكمة الله عز وجل في خلق الناس من أصل واحد وتكوينهم من معدن واحد وتفريقهم في جماعات تتقارب وتتصاهر وتتجاور، وجعلهم ﴿شعوبا وقبائل﴾، وهي حصول التعارف والتآلف بين أبناء البشر.

﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾: أي خلقناكم جميعا من أصل واحد من آدم وحواء، فهما أبوا البشر؛ ويؤيد هذا قول رسول الله ﷺ: «**أنتم بنو آدم وآدم من تراب**»[3]، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم، أو خلقنا كل واحد منكم من ماء ذكر وماء أنثى.

﴿وجعلناكم شعوبا﴾ الشعوب: جمع (شعب) وسميت شعوبا لأن القبائل تتشعب منها، أو لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة؛ والشَّعب من الأضداد: يقال: شَعَبْتُه إذا جمعته، وشَعبتُه إذا فرقته؛ وأما الشِّعب بكسر الشين المشددة فهو الطريق في الجبل، والجمع شعاب. والشَّعب بفتح الشين أعظم من يوجد من جماعات الناس مرتبطا بنسب واحد، وهو في التراتب الاجتماعي وعمود النسب الطبقة الأولى من طبقات النسب الست عند العرب، وهي: الشعب ثم القبيلة ثم العَمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الأسرة والفصيلة وهما قرابة الرجل الأدنون؛ فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعَمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الأسر والفصائل، والأسر والفصائل تجمع الأقارب؛ قال الخازن: «**ثم بعد ذلك العشائر واحدتها عشيرة، وليس بعد العشيرة شيء يوصف**»[4].

---

(3) الزبيدي في إتحاف السادة المتقين 419/8، وانظر التحرير والتنوير 258/26.

(4) تفسير الخازن 229/6.

فخزيمة ومضر وربيعة وحمير شعوب،
وكنانة وقيس وتميم ومذحج ومراد قبائل،
وقريش ومحارب وسليم عمارات،
وقصي ومخزوم بطون،
وبنو هاشم وبنو أمية أفخاذ،
وبنو عبد المطلب وبنو العباس أسرة وفصيلة.

هكذا ورد عند الأقدمين، والظاهر أن الأفخاذ تتفرع إلى فصائل، والفصائل إلى أسر؛ وأن القرابة القريبة هي التي تجمع بين أفراد الأسرة والفصيلة والفخذ والبطن، وكلما علت السلسلة تباعد الأقارب وانفصلت الجماعات بعضها عن بعض من حيث القرابة، وكلما ضاقت الجماعة توطدت القرابة وتلاحمت.

ولم يُذكر في القرآن الكريم من هذه الست إلا ثلاث: الشعوب والقبائل كما في هذه الآية التي نحن بصددها، والفصيلة في قوله تعالى من سورة المعارج: ﴿وفصيلته التي تؤويه﴾[5] وقد تطلق بعض هذه الست على بعض في كلام العرب، كما أطلق الشاعر البطن على القبيلة في قوله:

وإن كلابا هذه عشر أبطن
وأنت بريء من قبائلها العشر

وقيل إن المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل، والشعوبية فرقة تفضل العجم وتنتصر لهم على العرب.

(5) سورة المعارج 13/70.

﴿وقبائل﴾ سميت هذه الطبقة في تسلسل النسب المتفرعة عن الشعب والمتكونة من العمائر قبيلة لأنها قطع متقابلة.

﴿لتعارفوا﴾ أي لتتناسبوا وتتواصلوا، ويعرف بعضكم بعضا في قرب النسب وبعده، لا للتفاخر بالآباء والقبائل. وسبيل التعارف نبذ التفاخر بالأنساب والأحساب؛ فلقد ذكرت الآية الكريمة بأن الحكمة التي من أجلها رتب الله عز وجل الناس على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضهم نسب بعض فلا يعتزي أحد إلى غير آبائه، ويتركوا التفاوت والتفاضل في الأنساب ولا يتفاخرون بالآباء والأجداد. ثم بينت الآية الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره، ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ والأكرم هو الأنفَس والأشرف، كما في قوله تعالى: ﴿إني ألقي إلي كتاب كريم﴾[6] أي نفيس قيم؛ والأتقى هو من زاد فضلا في التقوى. وحقيقة التقوى بكل إيجاز مراعاة حدود الله تعالى أمرا ونهيا، والاتصاف بما أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ به، والتنزه عما نهى الله ورسوله عنه. وقيل: «**التقي هو العالم بالله المواظب على الوقوف ببابه المتقرب إلى جنابه**»[7]. وأساس التفاضل عند الله تعالى وفي العرف الطيب للمجتمعات الإنسانية الواعية الرشيدة هو صيانة النفس ووقايتها من الوقوع في غضب الله عز وجل، فإن تنافس الناس فليتنافسوا في التقوى كما قال تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾[8]؛

---

(6) سور النمل 29/27.

(7) تفسير الخازن 230/6 ؛ وقد تقدم الحديث مفصلا عن التقوى حقيقتها ومعانيها وشروطها ودرجاتها، راجع ص 24 -- 26 من هذا البحث.

(8) سورة التطفيف 26/83.

وجميع الناس في الشرف سواء بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء، وإنما يتفاضلون بأمور أخرى أعمق من ذلك وأقوى، وهي طاعة الله تعالى والقرب منه، وطاعة رسوله محمد ﷺ واتّباعه، وأكرم الناس عند الله أتقاهم لا أنسبهم، ومدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بالتقوى، قال ﷺ: «**من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله**»[9].

﴿**إن الله عليم خبير**﴾: أي مطلع على ظواهركم، عالم ببواطنكم، لا يخفى عليه شيء من أمركم ولا من أنسابكم ولا من أسراركم، فاجعلوا التقوى عملكم وزيدوا في التقوى كما زادكم، وهو سبحانه أعلم بمراتب الناس في التقوى، وبكرم القلوب وإخلاصها، خبير بحظوظ النفوس منها، وهممها في القصد والهوى، فمجاز كل إنسان على قدر ما أخلص واتقى، وما قدمت يداه في الحياة الدنيا، ولا مجال بعد ذلك للتفاخر أو التباهي بشيء، كما قال جل علاه: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم، هو أعلم بمن اتقى**﴾[10]؛ وما على الإنسان إلا أن يتخذ التقوى نهجه في معاشه وزاده إلى معاده.

في التذوق الفني للآية:

اشتملت هذه الآية الكريمة على أدوات تعبيرية متنوعة وصور فنية بديعة تسير مع النفَس القرآني المعجز ببيانه وروعة أدائه وجمال صوره ورشد معانيه وجلاء مقاصده لمن يمتلك حداً أدنى من حقيقة

---

(9) أخرجه الحاكم في المستدرك 270/4، والطبراني في الكبير 389/10، وأبو نعيم في الحلية 218/3 وهو عند القرطبي 345/16/8 برواية «من أحب أن يكون ..».

(10) سورة النجم 31/53.

اللغة ويتذوق جماليتها التعبيرية وخصائصها التركيبية وأبعادها الدلالية.

فابتداء الآية كان بالنداء وهو من أساليب الإنشاء الطلبي الذي يناسب استدعاء انتباه المتلقي وإثارة فضوله ليتطلع إلى ما يأتي الحديث عنه، وكان هذا النداء بـ(يا) الممدودة النائبة عن فعل (أدعو)، وتستعمل في البلاغة لنداء البعيد حقيقة أو حكما، لمزيد تأكيد الإثارة والتشويق إلى مضمون الخطاب، و(أي) في (ياأيها) منادى مبني على الضم في محل نصب، والهاء زائدة للتنبيه، ومن المعلوم بلاغياً أن لا زيادة في الكلام بدون معنى مقصود وإلا كانت الزيادة حشوا مذموما، والقرآن منزه عن الحشو بتاتا؛ و(الناس) بدل من (أي) مرفوع، و(إنا) مركبة من (إن) وهو حرف نصب وتوكيد مشبه بالفعل، و(نا) وهو ضمير متصل مدغمة نونه في نون (إن) مبني على السكون في محل نصب اسم (إن)، والجملة الفعلية (خلقناكم) في محل رفع خبرها. و(مِن ذَكَرٍ) جار ومجرور متعلق بالفعل (خلقنا)، و(أنثى) اسم مقصور معطوفٌ بالواو على (ذَكَرٍ) مجرور تابع له، وعلامة جره الفتحة النائبة عن الكسرة المقدرة على الألف المقصورة لأنه ممنوع من الصرف للتأنيث ووزن فُعلَى، والمانع من ظهور العلامة على الألف آخره هو التعذر. و(جعلناكم) جملة فعلية مركبة من فعل وفاعل ومفعول، معطوفة بالواو على جملة (خلقناكم) وتعرب إعرابها. و(شعوبا) مفعول ثان للفعل (جعلنا) و(قبائل) معطوف بالواو على (شعوبا) تابع له في نصبه، ولم ينون لأنه ممنوع من الصرف لكونه على صيغة منتهى الجموع. واللام في (لتعارفوا)

حرف جر للتعليل، و(تعارفوا) أصله لتتعارفوا، حذفت إحدى تاءيه لتوالي التاءين تخفيفا، وهو فعل مضارع منصوب بـ(أن) مضمرة جوازا بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والألف التي في آخر الكلمة فارقة، والجملة الفعلية (تعارفوا) لا محل لها من الإعراب صلة الحرف المصدري المضمر(أن)، والمصدر المؤول من (أن) المضمرة وما بعدها في محل جر بلام التعليل. والجار والمجرور متعلق بالفعل (جعلنا). و(عند) ظرف مكان منصوب على الظرفية متعلق بالمشتق (أكرم) وهو مضاف، ولفظ الجلالة مضاف إليه مجرور للتعظيم بالإضافة. و(أتقى) اسم تفضيل صيغ من (اتقى) على غير قياس، وهو خبر (إن) مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر.

والجمل في الآية ست: اثنتان منها اسميتان وهما قوله تعالى: ﴿إنا خلقناكم..﴾، وقوله سبحانه: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، وأربع فعلية وهي: ﴿يا أيها﴾ ، ﴿خلقناكم﴾، ﴿جعلناكم﴾، ﴿لتعارفوا﴾؛ وهي في مجملها أساليب خبرية إلا الأولى التي هي نداء فطلبية.

ومن الصور البلاغية في الآية الكناية في قوله تعالى: ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ حيث استعمل كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني ليتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض كناية بمرتبتين.

ومنها الاعتراض بقصد إدماج بعض المعاني في بعض وبيان أن مضمون الخطاب في الجملتين المتقدمتين هو مراد الله تعالى منهم، وذلك في الجملة ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ فهي معترضة بين الجملتين الأخريين السابقة واللاحقة.

ومنها لحن الخطاب، وذلك في الاقتصار على ذكر الشعوب والقبائل دون باقي طبقات النسب الأخرى لأن ما تحتها داخل فيها.

ومنها التذييل، فجملة ﴿إن الله عليم خبير﴾ ذيلت بها الآية للدلالة على الأمر بتزكية نوايا الناس في معاملاتهم وما يريدون من التقوى، وأن الله يعلم ما في نفوسهم وسيحاسبهم عليه.

مستخلصات هادية:

تفيد الآية الكريمة أن كل إنسان عليه أن يجتنب كل ما يحدث التحاقد والتباغض، ويوقع فيما نهت عنه الآيات السابقة في السورة من السخرية واللمز والنبز وسوء الظن والتجسس والاغتياب لأنها تفضي إلى التناكر لا إلى التعارف. وقد دلت على أمور أربعة كبرى يوجه القرآن الكريم الناس لمراعاتها لأنها عظيمة الأثر في تحسين الروابط بين الأفراد وترسيخ كريم العلاقات بين الجماعات وتشييع الألفة بين الشعوب والأمم، وربما بين الدول والحكومات أيضا:

الأول أن أصل البشرية واحد، وتكوينهم متشابه فكلهم لآدم، وآدم من تراب وقد خلقهم الله عز وجل جميعا من ذكر وأنثى، كما أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك في أول سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق

﴿منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾[11]؛ تلك مشيئة الله تعالى، ولو شاء لخلق الإنسان دون أب ولا أم كما خلق آدم عليه السلام، أو دون ذَكَر كما خلق عيسى عليه السلام، أو دون أنثى كما خلق حواء؛ وكل هذا جائز في حقه تعالى وهو قادر عليه.

والثاني أن الله عز وجل إنما جعل خلقه من بني آدم متشعبين إلى شعوب وقبائل وما يتفرع عنها لأجل أن يتعارفوا ويتآلفوا ويتكاملوا لا ليستعلي بعضهم على بعض أو يفتخر حسيب ولا نسيب ولا غني ولا وجيه على غيرهم.

والثالث أن التفاخر والتباهي بين الناس أمران مرفوضان مردودان لأنهما سلبيان يخرمان العلاقات وينخران المجتمعات.

والرابع أن أساس التفاضل بين البشر عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ هو التقوى دون الحسب والنسب، وهو ما ينبغي للناس أن يتخذوه مقياسا للفضل ومعيارا للسمو.

وقد ورد التنبيه إلى ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم والسنة المطهرة:

فمن آيات الله البينات قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم﴾[12] ، وقوله عز وجل: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى

(11) سورة النساء 1/4.

(12) سورة الأحزاب 70/33 - 71.

واتقون يا أولي الألباب﴾[13]، وقوله جل شأنه: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾[14].

ومن الأحاديث النبوية الشريفة: قول رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب**»[15]. ومنها ما يروى عن مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم**»[16].

فلا يجوز لأحد أن يفتخر على أحد بنسب ولا بجاه ولا بمكسب لأن ما بالإنسان من تلك النعم ليس بمحض سعيه، ولا لسلطة له عليه لجلبه أو صرفه، ولا لقدرة خاصة تفوق قدرات غيره من البشر على نيله أو تحاشيه. والبشر سواسية في مسألة النسب والانتماء إلى الأصول، والشرف إنما يحصل باكتساب فضيلة التدين المخلص أو التفقه العميق أو الكرم البالغ أو الإحسان

---

(13) سورة البقرة 19/62.

(14) سورة الحج 35/22.

(15) أخرجه الطبراني في كتاب آداب النفوس، وهو من خطبته ﷺ في حجة الوداع كما ورد في عموم كتب السيرة، وأورده ابن عاشور في التحرير 259/26، وابن عجيبة في البحر المديد 174/7، وغيرهما.

(16) روي الحديث بأسانيد ومتون مختلفة في كتاب البر والصلة والآداب من صحيح مسلم، وفي سنن ابن ماجة، وفي الكبير للطبراني.

المتميز، فبمثل هذا يتفاضل الناس بعضهم على بعض، وكلهم متساوون متقاربون فيما سوى ذلك.

وينبغي أن يؤسس الانتماء والانتساب والمصاهرة والمجاورة نظاما اجتماعيا محكم الأواصر متين الروابط بين الناس بدون عصبية ولا عرقية، بعيدا عن عوامل الفرقة والطائفية؛ وبذلك يعم الناس الإحساس القوي بعضهم ببعض وتنتشر الألفة المجدية والتكامل الحكيم بين عناصر الأمة قاطبة، تجسيدا للمنهج الذي دعا إليه الإسلام بالقرآن والسنة.

نعم هناك أمران جديران بالتأمل:

أولهما أن هناك شرفا حاصلا لبعض الناس من الانتساب إلى رسول الله ﷺ، ولكنه ﷺ أكد أن هذا الانتساب وحده لا يكفي، فأثبت ﷺ الشرف لمن انتمى إليه بالاكتساب أي باتباع سنته والاقتداء بهديه ونفاه عمن يعتمد في ذلك على مجرد الانتماء بالانتساب أي بإرث النسب بطريق الانحدار من سلالته فقال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**»[(17)]، وقال ﷺ مبينا من يستحق إرثه: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[(18)]. فدل على أن الموروث عنه ﷺ ليس الانتساب العرقي أو الانتماء النَّسَبي، وإنما هو اكتساب الفضائل التي دعا إليها والتحلي بالمحامد التي تحلى بها والالتزام بالدين والعلم والخلق الذي جاء به بحق ومارسه بإخلاص ودعا إليه ﷺ بدأب وكد وصبر ومجاهدة.

---

(17) ذُكر الحديث في فتح الباري 8/12، وفي زاد المسير 209/5، وفي بداية المجتهد 154/2.

(18) رواه ابن ماجة في السنن 223/1، وذكره الزمخشري في الكشاف 124، والسيوطي في الدرر المنثورة 114.

والثاني أن التفاوت بين الناس يكون في الكفر والإيمان، وفي الحس لا في الجنس، وإذا حصل شرف التقوى والتدين والصلاح لا يبقى هناك اعتبار لا لنسب ولا لنشب؛ فالكافر وإن كان من أعلى الناس نسبا، والمومن وإن كان من أدونهم نسبا لا يقاس أحدهما بالآخر في ميزان الشرع، ولهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء والشهادة كل شريف ووضيع إذا كان ديّنا عالما صالحا، ولا يصلح لشيء منها فاسق وإن كان رفيع النسب أو قاروني النشب[19]، والله عز وجل يقول: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾[20].

ولكن بعض الناس يحرّف الفطرة ويَقلب الوضع فيجعل اختلاف الشعوب والقبائل سببا للتناكر والتطاحن والعداوة.. وقد جبر الله صدع الناس بالإسلام وجمع شملهم بالإيمان كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾[21]، أفلا يرجع الناس إلى هذه الفطرة السليمة التي فطرهم الله عليها!!

وقد تكون لبعض الناس مكارم أخرى بعد التقوى مما شأنها أن يكون لها أثر في تزكية النفوس، مثل حسن التربية، ونقاء النسب، والمعرفة الواسعة بالعلوم، والباع الطويل في الحضارة، والقدم الراسخ في حسن العمل، والذكر الحسن عند الناس، أو ينتج المرء ما يخلد ذكره في التاريخ من المؤلفات والآثار الصالحة؛ وغير خاف أن لعوامل الوراثة والتربية والبيئة آثارا جمة في تكميل

(19) مفاتيح الغيب 136/28/14.
(20) سورة النجم 38/53.
(21) سورة آل عمران 103/3.

النفوس أو تقصيرها، كما أن للعادات والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة، فربما ورث الأبناء من طباع الآباء آثارا تهيئهم للكمال أو عادات تنحدر بهم في مدارك النقص، وربما أثرت التقاليد في تشكيل شخصية الإنسان وتوجيه سلوكه وأخلاقه، وقد أشار الحديث الشريف إلى ذلك فيما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ فقال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألون؟ قالوا: نعم. قال: الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا**»[22].

كما نجد في السنة الصحيحة ما يدل على أثر التربية في تكوين شخصية الفرد في مثل قوله ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[23].

ولقد استخلص الفقهاء من هذه الآية الكريمة ومما ورد في موضوعها من الأحاديث النبوية أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[24]، وقول الرسول الأكرم ﷺ في نصيحة الشباب باختيار

---

(22) فَقُهوا بضم القاف على المشهور، وحكي كسرها، ومعناه: إذا تعلموا أحكام الشرع. والحديث أخرجه البخاري بروايات عدة، والبغوي 125/13، وأورده في كنز العمال برقم 22399، 22406، 28780.

(23) أخرجه مالك في الجنائز، باب جامع الجنائز 241/1 ح 52، البخاري في الجنائز، باب ما جاء في أولاد المشركين 139/2 ح 208.

(24) ينظر تفسيرا ابن كثير 173/169/13، والقرطبي 345/16/8.

الزوجة المتدينة لا الحسيبة ولا النسيبة ولا الغنية ولا الجميلة: «...**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[25].

في محراب الآية:

تدل هذه الآية الكريمة على أن دين الإسلام سماوي صحيح، لأن الخالق العلي سبحانه عادل حكيم لا يفضل عباده بعضهم على بعض على أساس الألوان أو الأجناس أو الجهات، وإنما المعتبر عنده جل وعلا تقوى الإنسان وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي ولو كان رفيع النسب كريم المحتد.

وهذا النداء الرباني في صدر الآية موجه إلى كافة الناس ولم يوجه إلى المؤمنين خاصة مراعاة لقصد الآية وهو التذكير بأن أصل الناس واحد، وبأنهم جميعا في الحقيقة متساوون، وذلك قطعا لسبل التفاخر والتفاضل الشائعة وتأكيدا لأن لا تفاضل في الإسلام إلا بزيادة التقوى.

واختيار الله عز وجل النسب للذكر باعتباره وسيلة مرفوضة للتفاخر من دون أسباب التفاخر الأخرى الكثيرة كالمال والثروة أو الجاه والقوة أو الحسن والجمال أو غيرها، فيه اعتبار لأن النسب أقوى أسباب التفاخر لدى البشر وأثبتها وأدومها، وهو أمر غير مقدور على

(25) من حديث أخرجه البخاري في النكاح، باب الأكفاء في الدين، ومسلم في النكاح أيضا، باب استحباب نكاح ذات الدين، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ وأخرجه مالك في الموطأ، وأحمد في المسند، والترمذي في الجامع؛ ونصه الكامل: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**».

تحصيله لمن ليس له، أما الأمور الأخرى فغير ثابتة إن حصلت ولا دائمة، وقد تحصل لكل أحد فيبطل افتخار المفتخر بها؛ فكان اختياره وإبطال اعتباره بالنسبة إلى التقوى مؤشرا لبطلان غيره بالطريق الأولى.

والخلق من ذكر وأنثى أصل تفرع عليه الجعل شعوبا فإن الخلق هو الإنشاء والإيجاد للعبادة، والجعل هو التصيير والتسخير للتعارف، واعتبار الأصل متقدمٌ على اعتبار الفرع، فالنسب يعتبر بعد اعتبار العبادة كما أن التفريع إلى شعوب يتحقق بعدما يتحقق الخلق، فإن كان الإنسان عابدا متدينا مؤمنا اعتبر له نسبه وإن لم يكن متعبدا ولا متدينا ولا مؤمنا فلا اعتبار لنسبه، والفاسق وإن انتمى في النسب إلى الشرف والرفعة لن يرفعه نسبه، والمومن وإن كان مجهول النسب أو وضيعه لن يضره ضعته، وقد قال رسول الله ﷺ من حديث صحيح: «.. **ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»[26]. فلا يجدي شريفَ النسب نسبُه، ويجدي شريفَ العمل عملُه ..

وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه يقول:

أبي الإسلامُ، لا أبَ لي سواه
إذا افتَخَروا بقَيْسٍ أو تَميمِ

وصدق الشاعر إذ قال:

فقد رفع الإسلام سلمانَ فارس
وقد وضع الكفرُ الشّريفَ أبا لهب

(26) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، من حديث أبي هريرة: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا..» ح.

وأما التقوى فهي مراتب[27]:

فأدناها أن يأتي العبد بالأوامر والواجبات ويجتنب النواهي والمحظورات، فإن قصر في واجب أو ارتكب منهيا أتبعه بحسنة وأوبة، وأظهر عليه ندامة وتوبة، فإن لم يتب في الحال واتكل على المهلة في الأجل ومنعه عن التذاكر طول الأمل فليس بمتّقٍ.

وأتقى من ذلك من يأتي بما أمر به ويترك ما نهي عنه، وهو مع ذلك يخشى ربه فلا يشتغل بغير ما يرضي الله، فإن التفت لحظة إلى نفسه أو ولده اعتبر ذلك غفلة وذهولا، والتمس لنفسه إلى الذكر والثبات سبيلا، وطلب ليورَّث الفوز والنجاة عملا، استحضارا لقوله تعالى: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾[28]، واهتم بالآخرين فطلب لهم الخير، فالمسلم الحق من يهتم بغيره، ويسعى فيما يصلح حاله وحال أمته، وليس من يخص نفسه بخير أو يستأثر بمكرمة، وبون شاسع بين من أعطاه الله بستانا فاستأثر به واستخلصه لنفسه يستمتع بجماله ويستفيد كل يوم من خيراته، وبين من جعل خيرات البستان وثماره وبهجته للجميع ينال منها ما يشاء؛ وشتان بين عاطفة إنسانية تحس بالآخرين وتحب لهم الخير ولا تستأثر به، وبين عاطفة ذاتية أنانية تدعو بالحرمان للآخرين إذا لم تدرك منفعة خاصة:

فهذا أبو العلاء المعري يرفض في عاطفة إنسانية الاستئثار بالخير الذي لا ينتظم سائر العباد:

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا

---

(27) راجع الحديث من التقوى في ص 24 – 26.

(28) سورة مريم 72/19.

وهذا أبو فراس الحمداني يدعو بالحرمان العام إذا لم يصب هو من بغيته شيئا:

....

إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

وهناك صنف من الناس أهمية التقوى عندهم أقوى وهم بها أولى، إنهم علماء الأمة مصابيحها وأهل النظر والفكر والرشد فيها، واستهتار العالم أو تهاونه في اقتران العلم بالعمل آفة خطيرة ومعضلة مفجعة، وإنما ذلك سمة المنتسبين إلى العلم (المتفيهقين)، إذ التلازم قوي محكم بين العلم والعمل، أو بين الفقه والتقوى، أو بين المعرفة والسلوك. والله عز وجل يقول: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[29]، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، والعالم الذي لا يتقي كشجرة لا تثمر، بل هو كالحطب الهشيم، أو كحصب جهنم؛ ونصيب كل عبد من الله تعالى على قدر تقواه، وتقواه على قدر توجهه إلى ربه. فعلى كل إنسان أن يشكر فضل الله ونعمه عليه، وأن يكسر غرور نفسه، ويتواضع أمام كبرياء خالقه، وأن يخالق الناس بالخلق الحسن، ويجتهد في إدراك مراتب المتقين. وما أجمل قول الإمام علي كرم الله وجهه في هذا المعنى، وهو من مشهور شعره:

الناس من جهة التمثيل أكفاء
أبوهم آدم، والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة
وأعظُمٌ خلقت فيهم وأعضاء

(29) سورة فاطر 28/35.

ومَن يَرُم منهم فخراً بذي نسب
فإن أصلَهمُ الطينُ والماء
ما الفضلُ إلا لأهل العِلم إنهم
على الهدى لمن اهتدى أدِلاّء
وقدرُ كلِّ امرئ ما كان يحسنه
وللرجال على الأفعال سيماء
وضدُّ كل امرئ ما كان يجهله
والجاهلون لأهل العلم أعداء

لقد أراد هذا الدين الحنيف أن ينزع الإنسانُ من نفسه كل ميل إلى الاستكبار والجبروت والكبرياء، وأن يكف عن الصلف والغرور والاستعلاء، ويحترز من أن ينخدع بحاله أو يزهو بنفسه أو يفتخر على غيره، وأن ينتبه إلى أن مرد أصله إلى هذا التراب الذي تطؤه قدماه حتى إذا حدثته نفسه بالاختيال أو انخدع بما يطرأ عليه من حال، بادر إلى التأمل في عنصر وجوده ونظر إلى حقيقة أمره فانكسر فيه الغرور وانقاد إلى خلق التواضع وذكر أن لا مجال للإنسان أن ينخدع بالمال أو الجاه أو الولد، وأن كل ذلك لا يعطيه أحقية في ظلم الآخرين أو التفاخر والاستعلاء عليهم.

وكم في القرآن من قصص وعبر في هذا المجال، وإن شئنا فلنقرأ بتأمل قصص الأنبياء مع المستكبرين من أقوامهم وكيف كانت مصائرهم المظلمة، أو لننظر في قصة قارون وبغيه واعتداده بكنوزه وبدرايته بطرق الكسب ثم ما آل إليه أمره من سوء العاقبة بسبب الاستعلاء والاستكبار والكفر بنعمة الله وفضله، أو لنتأمل

قصة أصحاب الجنتين وما كان بإحداهما من زرع ونخيل وثمار واعتداد صاحبها بكثرة المال ووفرة الأنفار وكيف أصابها ما أصابها فأصبحت خاوية على عروشها.

ولكم عانت المجتمعات الإنسانية من داء التفرقة العنصرية وما تزال في بعض الأنحاء تعاني منها وما تزال بعض الحكومات تتخذها أداة من أدوات استعباد الناس وترسيخ التسلط وإثارة غريزة التخلص من المتسلطين والظالمين ومن الأوضاع الجائرة في نفوس المحرومين.

أما رسالة الإسلام الخاتمة فقد نبهت إلى ذلك عندما جعلت الناس سواسية كأسنان المشط، وحثت عليه بمنهج عملي هادف عندما فرضت على القادرين من المسلمين معاونة إخوانهم الأرقاء كي يتخلصوا من أغلال الرق وقيود الذل والعبودية، وجعلت تحرير الإنسان من وسائل التوبة من المعاصي أو التوسل إلى القرب من الباري، بل إن الإسلام قضى على كل الأفكار الظالمة التي كانت سائدة في الجاهلية، وجعل المسلمين يتعاونون من أجل رفعة المجتمع وإحكام بنائه. وكانت توجيهات الرسول ﷺ صريحة في ذلك وحاسمة، فلم يدع فرصة إلا نبه فيها المسلمين على ضرورة احترام الإنسان من حيث هو إنسان دون النظر إلى زيه أو شكله أو لونه أو نسبه، وجمع الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ حوله القرشيين الخلص، وجعل في صفهم وربما في مقدمتهم سلمان الفارسي، وبلالاً الحبشي، وصهيباً الرومي، ولم يكن قط يميز بين أحد منهم جميعا إلا بمدى الإخلاص في العبادة لله الواحد الأحد، والغيرة على دين الله وحرماته.

وجاءت هذه الآية من سورة الحجرات، كغيرها من الآيات، تضع لنا نظاما لتعامل الناس فيما بينهم، ثم تنعى على أولئك الذين يعتقدون أن إسلامهم أو كرم أصلهم أو وجاهتهم ستعطيهم الحق في الاستعلاء أو الافتخار على الآخرين، وتوجه الإنسان والمجتمع والدولة إلى الطريق السليم الآمن، طريق التواضع والتآخي والتآزر ونبذ التفرقة والعنصرية لتحقيق السعادة والطمأنينة والسلام.

8

التصديق شرط الإيمان والطاعة شرط القبول

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(14)﴾

مدخل :

من الناس من يقول: نحن مسلمون إذن نحن مؤمنون، والإسلام انقياد وإتيان بالأركان، والإيمان إيقان بالقلب وتصديق باللسان وفعل بالجوارح ونظر في الدلائل، وليس ادعاء باللسان فإذا لم يسكن الإيمان في القلب لا يعتبر الإنسان مؤمنا، وإنما يتأتى بالاقتناع التلقائي بالإسلام والممارسة العملية للعبادات والطاعات بقلب موقن مطمئن منطلق من خلق التسليم المطلق والانقياد التام للخالق وما أوحى به في كتابه وما دعا إليه وطبقه خاتم أنبيائه محمد ﷺ؛ وإنما يحصل ذلك بأحد أمرين:

إما بفعل المؤمن واجتهاده واكتسابه وفكره ونظره في الدلائل وتأمله وتدبره في ملكوت الله،

وإما بالإلهام يقع في النفس فينهمك مخلصا في الطاعات بالقلب والجوارح ويكف قانعا عن الآثام والمكاره؛ فإذا لم يحصل منهما شيء فلا إيمان ولو كان هناك إسلام.

والمناسبة بين هذه الآية والتي قبلها أنه لما قال تعالى في الآية السابقة: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، ناسب بيان ما يحصل به التقوى إذ الأتقى لا يكون إلا بعد حصول التقوى، وأن أصل الإيمان هو الاتقاء من الشرك.

أسباب النزول:

أورد كل من الزمخشري والقرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نفرا من الأعراب من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة في سنة جدبة فأظهروا الإسلام ونطقوا بالشهادة وادعوا الإيمان، لكنهم أفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ يطلبون منه الصدقة ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان؛ وجعلوا يمنون عليه بإسلامهم ويطلبون الصدقة، فأنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية[1].

وذهب الفخر الرازي إلى أن الآية قد تكون إشارة إلى حال المؤلفة قلوبهم إذا أسلموا وما زال إيمانهم بعد ضعيفا، وسيدخل

(1) الكشاف 569/3، والجامع لأحكام القرآن 340/16/8.

قلوبهم بعد أن يطلعوا على محاسن الإسلام ويمارسوا العبادات فيذوقوا حلاوة الإيمان حينئذ، فإن أطاعوا الله ورسوله كمل لهم الأجر[2].

وتروي كتب السنة سببا آخر مفاده أن رسول الله ﷺ أعطى رجالا ولم يعط رجلا شيئا، فقال سعد: يارسول الله، أعطيت فلانا وفلانا ولم تعط فلانا شيئا، وهو مومن؟ فقال النبي ﷺ: «أَوْ مُسْلم» حتى أعادها سعد ثلاثا، والنبي ﷺ يقول: (أو مسلم)؛ ثم قال النبي ﷺ: «**إني لأعطي رجالا وأدع من هو أحب إلي منهم فلا أعطيه شيئا مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم**»[3]، ويدل هذا الحديث على أن ذلك الرجل كان مسلما ولم يكن منافقا.

وقال السدي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح: أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغفار والدِّيل وأشجع؛ قالوا: آمنا، ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا، فنزلت[4].

وخلاصة الأمر أن الآية نزلت في بعض الأعراب، لأن منهم من يومن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى، وذلك لا ينفي القاعدة المعروفة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(2) مفاتيح الغيب 140/28/14.

(3) حديث صحيح أخرجاه في الصحيحين، ورواه الإمام أحمد.

(4) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا..﴾ وقوله في السورة نفسها: ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد..﴾ سورة الفتح 11/48، 16.

القراءات:

﴿لا يَلِتْكُم﴾: قرئ باللغتين: (لا يَلِتْكُم) و(لا يَأْلِتْكُم) بالهمزة، قرأ بالأخيرة أبو عمرو، وهو من أَلَت يأْلَت أَلْتاً، وهو اختيار أبي حاتم، اعتبارا بقوله تعالى: ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾[5]، واختار الأولى أبو عبيد، وكذلك أَلاته عن وجهه، على وزن (فَعَلَ) و(أَفْعَلَ) وهما بمعنى؛ ويقال أيضا: ما ألاته من عمله شيئا، أي ما نقصه، مثل: ألته.

من أجل التبيُّن والبيان:

﴿قالت الأعراب آمنا﴾: هذا إنما هو ادعاء منهم باللسان ولا يطابق الواقع، فالإيمان لا يكون بالقول، إنما يكون باليقين القلبي والسلوك الفعلي بالجوارح بعد الإقرار باللسان؛ و(الأعراب): أهل البادية؛ و(آمنا) من الإيمان وهو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس، وأصله من الأمن والاتقاء بأن يؤمن المرء نفسه من الشرك.

﴿قل لم تومنوا﴾: قل لهم: ما آمنتم، لأنكم لم تصدقوا بقلوبكم، وهو تكذيب دعواهم، وبيان أن الله تعالى خبير يعلم ما في الصدور.

﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾: أي قولوا انقَدنا واستسلمنا؛ وفي ترك التصريح بالنهي عن ادعاء الإيمان إرشاد وتأديب فلم يقل: لا تقولوا آمنا، ولكن أرشدهم إلى الامتناع عن الكذب فقال: (لم تومنوا) فإن

---

(5) سورة الطور 52/19.

كنتم تقولون شيئا فقولوا أمرا عاما، لا يلزم منه كذبكم وهو كقولهم: (أسلمنا) أي قبلنا ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر، أو انقدنا واستسلمنا حقناً للدم وخوفاً من القتل والسباء فإن الإسلام بهذا المعنى قد حصل.

ومشهور لدى الفقهاء أن (الإسلام) و(الإيمان) إذا اجتمعا اختلفا وإذا افترقا اتفقا، فإن ذكرا في مقام واحد اختلفت دلالة كل منهما عن دلالة الآخر، وإن ذكر كل منهما في موطن مختلف أفادا معنى متشابها متكاملا، لكنْ بينهما عموم وخصوص، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب وقد يحصل باللسان؛ والإسلام أعم لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص، ولا يكون أمرا آخر غيره، فالحيوان ـ مثلا ـ أعم من الإنسان، لكن الحيوان في صورة الإنسان ليس أمرا ينفك عن الإنسان ولا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيوانا ولا يكون إنسانا، فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود، فكذلك المؤمن والمسلم.

باعتبار الفرق القائم بين الإسلام الذي هو العمل بالأركان، وبين الإيمان الذي يرقى فيه إلى مستوى اليقين التام والتصديق المطلق بالقلب مع الإذعان والخنوع الكلي؛ فلا بد أن يتواطأ الإقرار باللسان مع مكنون القلب ليتحقق الإيمان، ويرى البعض أن الإسلام والإيمان متلازمان في الشرع، فلا إسلام إلا بعد إيمان، ولا إيمان إلا بعد النطق بالشهادتين إلا لعذر[6]. غير أن الإيمان أخص من

(6) القرطبي 340/16/8.

الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، وفق ما يفيده حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان:

فعرف ﷺ الإسلام بما يتصل بالعمل بالجوارح وممارسة الطاعات: **«أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتوتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»**.

وعرف الإيمان بما يتصل بالاقتناع الاعتقادي والتسليم القلبي: **«أن تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتومن بالقدر خيره وشره»**.

وعرف الإحسان بما هو أسمى وأعلى في درجات القناعة المطمئنة والانقياد الإيجابي: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[7]؛ ففرق ﷺ بين الثلاثة وانتقل من الأعم إلى الأخص ثم إلى الأخص منه. ومن ثمة فالإسلام هو الانقياد بفعل الطاعات وترك المنهيات، وقد يوجد من الإنسان قولا وفعلا أو كفا وامتناعا وإن لم يوجد اعتقادا وعلما، وهذا القدر كاف في الانتماء إلى الإسلام، لكنه لا يصل به إلى مرتبة الإيمان.

والإيمان يضفي على صاحبه طابعا خاصا يتميز به أخلاقا وسلوكا وعلاقات ومعاملات داخلية مع النفس ومع العترة

(7) الحديث رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان وأصحاب السنن عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. راجع ص 22 حاشية 23.

والأقارب وخارجيا مع الأباعد ومع المحيط كله من إنسان وحيوان ونبات وحتى الجماد الذي يعتبره المؤمن هبة من الله عز وجل وتجسيدا لمظهر من مظاهر قدرته تعالى وحكمته، وذلك طابع لايستشعره إلا المؤمن، ومن ثم يعيش المؤمن حالة اطمئنان روحي وهدوء نفسي واعتدال في الفكر والنظر والانفعال والتأثر والتأثير، وذلك مصداقا لقول الصادق المصدوق ﷺ: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمومن**»[8]، أي إنما يستشعر هذا الاطمئنان المؤمن لا غيره، ولو كان من الداخلين في دائرة الإسلام بالنطق بالشهادة ولم يباشر الإيمان أحاسيسه ولا عشش في قلبه؛ من هنا كان الفرق بين الإسلام والإيمان، وكان ادعاء الإيمان لا يكفي فيه النطق باللسان بل لا بد أن يقترن هذا النطق بقناعة قلبية مضمرة وسلوك بالجوارح ظاهر؛ على خلاف اكتساب وصف الإسلام فبمجرد النطق بالشهادتين يكتسب الناطق بهما حكم الإسلام ويمتنع وصفه بالكفر إلا أن يبدي ما يناقض شهادته بالقول أو الفعل، مع أن طاعة الله ورسوله شرط اكتمال الإسلام والإيمان، ومجلبة قبول الأعمال. فالحرص على التشبث بالإسلام، والعمل على اكتمال الإيمان من مقتضيات حسن الاعتقاد وترقب قبول العمل والفوز في يوم المعاد.

ويعني ما تقدم أن الإسلام قد يدل على مجرد الدخول في السلم والخروج من أن يكون معتنقه حربا على المومنين بإظهاره الشهادتين

(8) أخرجه البخاري ومسلم، عن أبي يحيى صهيب بن سنان الرومي.

وإعلانه مسالمة المسلمين والإذعان لرب العالمين والعزم على الإتيان بالأركان، فيعد مسلما، وأما الإيمان بمعنى التصديق بالقلب فلم يحصل بعد، وذلك ما عبر عنه الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾: لأنكم إنما أقررتم باللسان من غير أن يتفق ما صرحتم به مع ما هو مكنون في قلوبكم. وهو توقيت لما أمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم: ما دام فعلكم غير مطابق لقولكم فلا إيمان لكم لأن الإيمان لم يدخل بعد في قلوبكم، وإنما يلزم أن تقولوا أسلمنا لا آمنا.

﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾: معنى طاعة الله ورسوله أن يتوبوا عما كانوا عليه من الادعاء الكاذب، ويعقدوا قلوبهم على الإيمان الصحيح، ويعملوا بمقتضياته، يعني: إن تخلصوا الإيمان والاعتقاد، وتتركوا الادعاء:

﴿ لا يلتكم من أعمالكم شيئا ﴾: أي لا ينقصكم شيئا من أجوركم ولا يظلمكم، يقال: أَلَتَهُ السلطان يألَته حقَّه أشد الأَلَتِ، وهي لغة غطفان، ولغة أسد وأهل الحجاز لاتَهُ يَليتُه. ومثله في المعنى قول الله تعالى: ﴿فلا تظلم نفس شيئا﴾[9]، وقوله: ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾[10]، والمراد أنكم إذا أتيتم بما يليق بضعفكم من الحسنة فهو يوتيكم ما يليق به من الجزاء، بمعنى أنه يعطي ما تتوقعون بأعمالكم من غير نقص. وحكى الأصمعي عن أم هشام السلولية أنها قالت: «الحمد لله الذي لا يُفات ولا يُلات ولا تَصِمُه الأصوات»[11].

---

(9) سورة الأنبياء 47/21.

(10) سبق تخريج الآية في الحاشية (5) أعلاه (ص 175).

(11) الكشاف 569/3.

﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي من تاب إليه منهم وأناب فإن الله يغفر له ما قد سلف منه وما فرط من الذنوب، ويرحمه بستر العيوب وما أتى به من الادعاء. فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم ووهب لهم مغفرته وأنعم عليهم بجزيل ثوابه.

في التذوق الفني للآية:

في نظم هذه الآية الكريمة صور قرآنية بديعة فنية في مستويي المبنى والمعنى:

ففي المعنى نجد التقابل بين المؤمن والمسلم، وهما معا بمعنىً إن ذكرا مفترقين كما بينا ذلك آنفا.

واستعملت الآية التعريض عوض التصريح، وفي ذلك حسن الأدب في مخاطبة الآخرين، حيث كذّب الحقُّ سبحانه وتعالى ادعاءَ هؤلاء الأعراب ودفَع ما انتحلوه بقوله: ﴿لم تومنوا﴾ ولم يقل: (كذبتم)، فوضع (لم تؤمنوا) - وهو نفي ما ادعوا إثباته ـ موضع كذبتم ـ وهو المقصود بمضمون الخطاب ـ وفي ذلك تعريض بأنهم كاذبون. ومعلوم أن التعريض أبلغ من التصريح، فكان في الاستغناء بجملة (لم تؤمنوا) عن أن يقال (لا تقولوا آمنا)، حسن الأدب مع المخاطب لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان؛ ثم وصلت بها الجملة المصدرة بكلمة الاستدراك ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ محمولة على المعنى، ولم يقل (ولكن أسلمتم) ليكون خارجا مخرج الزعم والدعوى كما كان قولهم (آمنا) زعما وادعاء؛ ولو قيل: (ولكن أسلمتم) لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به.

واستعمل في الآية أسلوب الشرط والجواب في: ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا﴾ تأكيدا لأن المرء إذا حقق الطاعة المطلقة المطلوبة منه لله ولرسوله فإنه ينال ثواب استجابته وعمله المترتب عن الطاعة كاملا غير منقوص، وأن اعتبار العمل وترتب الجزاء عليه مشروط بطاعة الله ورسوله.

وفي مبنى الآية الكريمة استعملت (لما)، وهي و(لم) حرفا نفي، يغيران معنى الفعل من الاستقبال إلى المضي، ويفيدان الجزم والقطع في المعنى، فجُعل لهما تناسب مع المعنى وهو الجزم في اللفظ، بينما غيرهما من الحروف (ما، وإن، ولا) لا تفيد القطع في المعنى ولا تعمل الجزم في الفعل. ولقد عبرت الآية الكريمة في ﴿لم تومنوا﴾ بحرف(لم) وليس فيه معنى الانتظار لقصور نظرهم وفتور فكرهم؛ وعند فعل الإيمان عبرت الآية في ﴿لما يدخل﴾ بحرف(لما) الذي فيه معنى التوقع لظهور قوة الإيمان، كأنه يكاد يغشى القلوب بأسرها، وفيه دلالة على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

وقد يُتوهم أن قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾ تكرير لمعنى قوله: ﴿لم تومنوا﴾ وليس بذاك، فإن فائدة قوله: (لم تؤمنوا) تكذيب دعواهم، وفائدة قوله: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) بيان قيمة مضافة هي توقيت ما أمروا أن يقولوه، كأنه قيل لهم: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ حين لم تثبت الموافقة بين قولكم وبين ما في قلوبكم؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من ضمير جماعة المخاطبين في (قولوا).

وفي مستوى البناء والنظم نرى الآية مركبة من تسع جمل فعلية، وجمل اسمية واحدة، وشبهي جملة:

فأما الجمل الفعلية فأولاها: ﴿قالت الأعراب آمنا﴾ وفعلها الرئيس ماض مبني على الفتح، والتاء فيه للتأنيث، و(الأعراب) فاعل مرفوع؛ وجملة (آمنا) فرعية هي الفعلية الثانية فعلها ماض مبني على السكون لاتصاله بـ(نا) الدالة على الفاعل، والجملة في محل نصب مفعول به للفعل (قالت)؛ وجملة ﴿قل لم تومنوا﴾ مركبة كذلك من جملتين: أساسية هي الثالثة، وهي فعل الأمر (قل)، وهو مبني على السكون لأنه صحيح الآخر ولم يتصل بآخره شيء، وفاعله الضمير المستتر المقدر: أنت؛ وفرعية هي الجملة الفعلية الرابعة وهي المضارع المجزوم بـ(لم) في قوله تعالى: ﴿لم تؤمنوا﴾ وفاعله واو الجماعة: الضمير المتصل المبني في محل رفع، وهي في محل نصب مفعول به للفعل (قل). وقوله تعالى: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ جملة مركبة أيضا من جملة أساسية هي الفعلية الخامسة: (ولكن قولوا) مبتدئة بحرف الواو الذي يفيد عطف اللاحق من الكلام على سابقه، مع أداة الاستدراك (لكن) التي أفادت استدراك أمر المخاطبين ومراجعتهم فيما يقولون، وقد خففت فبطل عملها ولم تقتض اسما ولا خبرا، وإنما دخلت على فعل الأمر (قولوا) المبني على الضم، والواو فيه للجماعة ضمير متصل مبني على السكون الميت في محل رفع فاعل، و(أسلمنا) وهي الجملة الفعلية السادسة، فعلها ماض مبني على السكون لاتصاله بـ(نا) الدالة على الفاعل، والجملة في محل نصب مفعول به للفعل (قولوا). وقوله تعالى ﴿ولما

يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ هي الجملة الفعلية السابعة، دخلت الأداة الجازمة (لما) على فعلها المضارع فعملت فيه الجزم وقلبته إلى المضي، وإنما جر آخره قراءة ورسما ـ مع أنه لا جزم في الأسماء ولا جر في الأفعال ـ لالتقاء الساكنين؛ و(في قلوبكم) شبه الجملة الأول من جار ومجرور في محل نصب مفعول فيه على الظرفية المكانية، متعلق بالفعل (يدخل)، و(قلوب) مضاف، والكاف المتصل بآخره للخطاب، والميم فيه للجماعة: حرف مبني على السكون في محل جر مضاف إليه ما قبله. وقوله عز وجل: ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾ جملة فعلية ثامنة، فيها أداة شرط جازمة للفعل المضارع (تطيعوا) الذي هو فعل الشرط، وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، وواو الجماعة فيه ضمير متصل هو الفاعل، واسم الجلالة مفعول منصوب، و(رسول) معطوف بالواو على المنصوب وهو مضاف، والهاء في آخره ضمير الغائب مبني على الضم في محل جر مضاف إليه. وقوله تعالى: ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئا﴾ هو الجملة الفعلية التاسعة، مبدوءة بحرف النفي الجازم للفعل المضارع، وفاعله الضمير المستتر، و(أنتم) الدال عليها الميم المتصل به مفعول به أول، و(من أعمالكم) شبه الجملة الثاني، من جار ومجرور متعلقين بالفعل (يلتكم)، و(شيئا) مفعول به ثان معمول للفعل نفسه؛ والجملة في محل جزم جواب الشرط.

وقوله سبحانه: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ هو الجملة الاسمية الوحيدة في الآية، تأكد مضمونها بأداة النصب والتوكيد (إن) التي عملت النصب في اسمها (الله)، والرفع في خبرها (غفور)، وهو من

الصفات العلية، أردفت بالصفة العلية الثانية (رحيم) فكانت هذه تابعة لتلك في الرفع؛ وهذه الجملة خبرية تقريرية مؤكدة لمعنى الجملة قبلها، نافية لأي صورة من صور الظلم عن الحَكَم العدل الحق سبحانه وتعالى، ومنبهة إلى كرمه ورحمته وحلمه جل علاه.

من مستخلصات الآية:

يؤخذ مضمون هذه الآية الكريمة على أنه كالتأريخ لنزولها وتعميم توجيهها، وليس أمرا مختصا بأولئك الأعراب الذين هم موضوعها، فكل من أظهر فعل المتقين ـ مثلا ـ وأراد أن يصير له ما للأتقياء من الإكرام والمنزلة فلا يكتفي بالضروريات والأعمال الظاهرات، بل لابد من إصلاح السرائر ورسوخ القناعات، لأن التقوى من عمل القلب وليست من الشكليات.

ومن ثم فالآية الكريمة تفيد أن الإنسان لا ينبغي له ادعاء الوصول إلى مقام من مقامات القرب إلا بعد إعداد العدة والقيام بالمقتضيات اللازمة لإدراك القصد، فقد يطمح إلى أعلى المراتب لكنه لم يتأهب لها فكيف يدركها!

وفي الآية معجزة من معجزات سيدنا محمد ﷺ حيث أطلعه الله بها على ضمير قلوب هؤلاء الأعراب، وهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا هو، ومن المعلوم أن الله عز وجل نهى عن التطلع إلى ضمائر الناس ومكنوناتهم أو الحكم عليها فقال سبحانه مخاطبا العباد: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مومنا﴾[12]، أي لعدم علمكم بما في قلبه، لكن الله عز وجل شاء أن يطلع رسوله على هذا الغيب بالوحي.

(12) سورة النساء 93/4.

وقوله تعالى: ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا﴾ فيه تحريض على الإيمان الصادق وترغيب في تحسين النيات والإخلاص في الأعمال حتى لا ينقص العمل بسوء النية أو انعدامها، وحتى لا يضيع الأجر بعدم الإخلاص، لأن من أتى بفعل من غير صدق نية ولا إخلاص فيه ضاع عمله ولم يعط عليه أجر.

وفيه أيضا تسلية لقلب من تأخر إيمانه فآمن بعد طول أمد، أو تأخرت توبته فتاب بعد تسويف ونكد، واعتقد أن لا أثر لإيمانه ولا وقع له ولا أجر عليه؛ فبين سبحانه وتعالى بهذه الآية أن أجر المؤمن لا ينقص، وأنه ينال ما يتوقع وإنما التقدم والمسارعة مكرمة محمودة، ورغيبة مطلوبة، ومطية لاكتساب المزيد من الأجر والثواب، والله عز وجل يعطى من خزائن رحمته الواسعة بغير حساب ولا امتنان.

في محراب الآية:

تثير هذه الآية الكريمة لدى المتأمل بعض التساؤلات، مثل:

هل ينفع إسلام بدون إيمان؟

وهل يكون إيمان بدون إسلام؟

وهل يعد منافقا من لم يدرك مرتبة الإيمان أو الإحسان؟

وهل يضيع عمل عامل، أي طاعته، بعد تلكؤ أو تريث أي بتأجيل وتسويف للتوبة؟

فأما الإسلام بدون إيمان فقد علم مما تقدم أن استكمال الأركان وأداءها على الوجه الأكمل المطلوب يؤدي إلى اكتساب صفة الإيمان واستقراره في القلب وتقويته واستدامته.

وأما الإيمان بدون إسلام فلا يتصور، لأن مضمون الاعتقاد المنصوص على عناصره في الآيات والأحاديث والمتمثل في التصديق المطلق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، إنما يستقر في القلب فيكتسب به المعتقد صفة الإيمان بعد الإتيان بالأركان، وذلك وجه من أوجه التلازم بين الإسلام والإيمان، الذي يؤكده الخضوع المطلق لما قضى به الله ورسوله، أي للكتاب والسنة، ونفي أي اختيار خارج عنهما كما قال الله تعالى: ﴿وما كان لمومن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم﴾[13]، فجَعلُ الاختيارِ محكوما بأمر الله ورسوله شرطٌ في تحقيق الإيمان؛ وكذلك ينفي اللّه عز وجل صفة الإيمان عن الإنسان حتى يحتكم في أمره كله إلى الوحي، ثم يرضى بحكمه من غير حرج ولا اعتراض، ثم يسلم الأمر إلى ربه تسليما كاملا من دون أي ارتياب. قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[14].

وأما وصف من لم يدرك مرتبة الإيمان أو الإحسان بالمنافق فليس بظاهر، لأن الآية أثبتت أن هؤلاء الأعراب ليسوا منافقين وإنما ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، كما قال مجاهد، فأدبوا وأعلموا أنهم لم يصلوا إلى حقيقة الإيمان، ولو كانوا منافقين لعُنِّفوا وفُضحوا، مثلما ذُكر المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل

(13) سورة الأحزاب 36/33.

(14) سورة النساء 64/4.

لهؤلاء تأديبا: ﴿قل لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

وأما ضياع عمل المتلكئ أو المتريث المؤجل للاستغفار المسوف للتوبة أو عدم انتفاعه بطاعته، فالله عز وجل وعد التائبين المستغفرين بمحو ما تقدم من ذنوبهم، قال تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله..﴾[15]. فشرط قبول التوبة ونيل الفضل من الله عز وجل: الطاعة والاستجابة وعمل الصالحات في وقت العمل والقدرة؛ وقال سبحانه: ﴿قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له..﴾[16]، فالإنابة إلى الله بالطاعات شرط استحقاق المغفرة والرحمة. والأحاديث الصحيحة تنص على انتفاع الإنسان بأعماله، وأن الله عز وجل يكفر السيئات بعمل الصالحات، ويغفر الذنوب بأداء الفرائض والواجبات؛ من ذلك قوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[17]، وقوله: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»[18]، أي خاليا من الذنوب مكفرة عنه.

---

(15) سورة الشورى 23/42 – 24.

(16) سورة الزمر 50/39 – 51.

(17) أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة.

(18) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

غير أن التعجيل بالتوبة والاستغفار مرغب فيه مشوّق إليه، وتأخير ذلك مرغب عنه محذر منه لأن التسويف والتأجيل قد يفوت فرصة الاستجابة، قال تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم، وكان الله عليما حكيما. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما﴾[19]. ولقد تاب فرعون وآمن بعد أن أيقن من مصيره فقال حينما أدركه الغرق: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾[20]، لكن هذه التوبة المتأخرة لم تنفعه لأن وقت التوبة قد فات، فقال تعالى مستنكرا هذه التوبة معبرا عن أنه ظل غافلا عاصيا لما كانت لديه الفرص السانحة، وإذ قد أخر التوبة إلى حين غرقه فلا تنفعه حينئذ توبة ولا إيمان: ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾[21]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[22] وقال ﷺ: «**باب التوبة مفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربها**»[23]؛ وقد ختم الله عز وجل الآية موضوعنا بقوله سبحانه: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ تأكيدا لمغفرته ورحمته.

(19) سورة النساء 17/4 – 18.

(20) سورة يونس 90/10.

(21) سورة يونس 91/10.

(22) رواه الترمذي وابن حبان وأحمد والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما، كنز العمال 210/4 ح 10187، 10259، 10263.

(23) رواه الدارقطني والطبراني عن صفوان بن عسال، وذكره ابن عدي في الضعفاء، كنز العمال 221/4 ح 10253.

9

من صفات المؤمنين الصادقين

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15)

مدخل:

لابد للإنسان من الإيمان الذي يقوم على اليقين القلبي والخضوع والانقياد ظاهرا وباطنا، والغوص على أنوار التقوى وأسرار الإخلاص، ومعرفة الحقيقة النورانية للعقيدة والشريعة والسيرة النبوية الموجَّهة بالعناية الربانية؛ ثم تجريد البال وصيانة الخاطر من كل سوء وضلال أو شك وارتياب في جميع ما وعد الله به في الحال والمآل، والاستعداد لبذل الأموال والمهج في سبيل الله. فمن كان ذلك همهم وغايتهم هم الصادقون في طلب الحق، الظافرون بالمؤمّل، الرابحون في الحال والأجل.

ولقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تعرض صفات المومنين في سور متعددة، منها قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم

آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾[1]، وقوله سبحانه في أول سورة المومنون : ﴿قد أفلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾[2]، وقوله عز وجل من قائل في سورة النور : ﴿إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يومنون بالله ورسوله، فإذا استاذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله، إن الله غفور رحيم﴾؛ ومجمل تلك صفات تتوزع بين قناعات معنوية واعتقادات باطنية، وأقوال ناطقة معبرة، وأعمال بدنية أو نفقات مالية أو معاملات وسلوكات ظاهرة.

وهذه الآية الكريمة من سورة الحجرات إنما نزلت حسب مختلف الروايات في قوم جهلوا أو لعلهم تجاهلوا حقيقة الإيمان، فجاءوا الصادقَ الأمين ﷺ يحلفون أنهم مومنون في السر والعلانية، وما كانوا كذلك، فنزل القرآن يفضح كذبهم ويبين لهم كنه الإيمان وحقيقة المومنين وأهمية الصدق في الادعاء وشروط اكتساب صفتي الإيمان والصدق وهما صفتان متلازمتان متكاملتان.

---

(1) سورة الأنفال 8/2 – 4.

(2) سورة النور24 60.

من أجل التبيُّن والتبيان:

﴿إنما﴾ هذه أداة حصر مركبة من (إنّ) و(ما)، وهي تفيد حصر جنس المبتدأ بعدها في خبره، ويتضح ذلك بالتأمل في مضمون الآية، حيث حصر الاتصاف بالإيمان فيمن اعتقدوا يقين الاعتقاد في الله عز وجل وفي رسوله ﷺ ثم لم يكن لديهم أدنى ريب في اعتقادهم، وبذلوا في سبيل الله كل ما يستطيعون وما يملكون.

﴿ثم لم يرتابوا﴾: (ثم) للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس حال الإيمان فقط بل فيه وفيما يستقبل من الأمور والأوقات كلها، فهي كما في قوله: ﴿ثم استقاموا﴾[3]. و(لم يرتابوا) من (ارتاب) وهو مضارع مطاوع (رابَهُ) بمعنى أوقعه في الشك والتهمة؛ أي لم يشكّوا ولم يترددوا في إيمانهم ولم يداخلهم ريب، بل ثبتوا على حال واحدة، هي التصديق المحض، وفيه إشارة إلى ما أوجب نفي الإيمان عنهم.

﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾: لمفهوم الجهاد هنا احتمالات:

ـ فيحتمل أن يكون عمليا وهو مواجهة العدو المحارِب أو الشيطان أو الهوى، ومقاومتهم،

ـ ويحتمل أن يكون معنويا وهو المبالغة في الجهد والمدافعة والصبر،

---

(3) سورة فصلت 41/29، وسورة الأحقاف 46/12.

ـ ويحتمل أن يتناول العبادات بأجمعها، بما فيها مقاومة نزوات النفس وشهواتها لتحمل الطاعات وإتيان الخيرات واجتناب المنهيات والمنكرات، وغزو العدو وبذل النفس في سبيل الله كما فعل المسلمون الأولون في غزوة بدر، والمجاهدة بالمال كأداء الزكوات أو البذل في الشأن العام نحو ما صنع عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تجهيز جيش العسرة، وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي ينفق فيها المرء ماله من أجل طاعة الله وابتغاء مرضاته؛ وهذا هو الأولى والله تعالى أعلم؛ قال الإمام البيضاوي في تفسيره: «**والمجاهدة بالأموال والأنفس تصلح للعبادات المالية والبدنية بأسرها**»[4].

﴿**أولئك هم الصادقون**﴾: أي في ادعاء الإيمان، لأن فعلهم جاء مصدقا لقولهم فحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة. وللصدق هنا وجهان:

الأول أن يتعلق بالأشخاص فيكون المعنى: هم الذين صدقوا في قولهم: (آمنا)، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد الذين قالوا: (آمنا) بأفواههم ولم تومن قلوبهم ولم يخلصوا العمل، أو لم يكونوا كأولئك الذين أسلموا خوفاً من القتل ورجاءً في الكسب.

والثاني أن يتعلق بالإيمان نفسه فيكون القصد: هم الذين إيمانهم إيمان صدق وحق وجِدّ وثبات.

وهذه الآية الكريمة تعليل لقوله تعالى قبلها في سورة الحجرات نفسها: ﴿**قل لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في**

(4) أنوار التنزيل وأسرار التأويل 418/2.

قلوبكم﴾ فالأصل في الإيمان أنه اعتقاد باطني يفيد الثقة والطمأنينة المؤدية إلى التيقن وزوال الشك والريب والتصرف بالقول والعمل انطلاقا من قوة الإيمان، وهذا لا ينفي اعتراض شياطين الإنس والجن وقذفهم الشكوك في قلوب المومنين سعيا إلى أن يصاب إيمانهم بثلم أو تنال طمأنينتهم بتذبذب؛ غير أن الآية تبين أن المومنين الصادقين لا يخضعون لوسوسات الشياطين ولا يأبهون، ولا يتأثرون بأضاليل المضلين ولا يترددون، على حد قوله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[5]. وتقرن الآية بين الإيمان وبين الاطمئنان وعدم الارتياب، فالإيمان أولا، والاطمئنان ثانيا: ﴿آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾[6]؛ وهذا إرشاد للأعراب الذين قالوا آمنا إلى حقيقة الإيمان، وكأنه يقول لهم: إن كنتم تقصدون الإيمان الحقيقي فالمومنون حقا هم الذين اقتنعوا بالحق، واعتقدوا في الله الحق، وصدقوا بمحمد ﷺ وبما جاء به من الحق، ثم لم يقع في نفوسهم شك في دينهم ولا في شيء مما آمنوا به واعتقدوه، ولا اتهام للرسول الذي صدقوه واعترفوا به من الحق؛ ولما كان الإيقان وزوال الريب ملاك الإيمان وقوامه أفرد بالذكر بعد تقدُّم الإيمان تنبيها على علو مكانته، وعُطف على الإيمان بـ(ثم) إشعارا باستقراره عبر الأزمنة المتراخية المتطاولة المتجددة.

ويستتبع الإيمان بذلك المعنى الكامل ما يقتضيه الإيمان الصحيح المفعم بالصدق والإخلاص، من الاستعداد لبذل الغالي

---

(5) سورة الأعراف 201/7.

(6) تقدم تخريج الآيتين في الحاشية (3) أعلاه.

والنفيس فيما ينبغي مجاهدته من الكفار والأنفس والأهواء، بالإعانة بأموالهم والمباشرة بأنفسهم في طلب طاعة الله عز وجل ورضوانه؛ فمن توافرت فيهم تلك الصفات فهم الصادقون في قولهم إذا قالوا إنهم مومنون، لا كمن ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة، وما معهم من الإيمان إلا الادعاء الأجوف.

وظاهر السياق أن المقصود من إدخال الجهاد ضمن صفات المومنين الصادقين هنا أمران اثنان:

أولهما التنويه بفضل المومنين المجاهدين،

والثاني تحريض الذين دخلوا في الإيمان على الاستعداد إلى الجهاد، كما في قوله تعالى: ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يوتكم الله أجرا حسنا، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما﴾ الآية[7]، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «**المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل**»[8].

في التذوق الفني للآية:

في الآية ثلاث جمل فعلية: (آمنوا، لم يرتابوا، جاهدوا)؛ وأربع جمل اسمية منها الأصلية الكبرى (إنما المومنون..، أولئك..)، ومنها

(7) سورة الفتح 48/16.

(8) أخرجه الإمام أحمد في المسند 3/8 ح 11064، وفي إسناده رشيد بن سعد وهو ضعيف.

الفرعية الصغرى (الذين آمنوا..، هم الصادقون). وفيها من الأدوات ثمانية منها حرف توكيد (إن)، وحروف جر (في، الباء)، وحروف نفي(ما، لم) وحروف عطف(ثم، الواو). وفيها ثمانية ضمائر منها المتصل (واو الجماعة، هاء الغائب) والمنفصل (هم)، وفيها اسم موصول واحد: (الذين)، واسم إشارة واحد(أولئك).

و(إن) في قوله تعالى: ﴿إنما﴾ تفيد التوكيد والتعليل، و(ما) كافة لـ(إن) عن العمل، و(المومنون) مبتدأ مرفوع بالابتداء، وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من تنوين المفرد وحركته. و(الذين) اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع نعت للمومنين. (آمنوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، والألف بعد الواو فارقة، والجملة الفعلية (آمنوا) صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. و(بالله) جار ومجرور للتعظيم متعلق ب(آمنوا)، والواو عاطفة، و(رسوله) اسم معطوف على المجرور، وعلامة جره الكسرة الظاهرة، وهو مضاف والهاء فيه ضمير متصل في محل جر مضاف إليه، والجار والمجرور متعلق بالفعل(آمنوا).

و(ثم) في قوله تعالى: ﴿ثم لم يرتابوا﴾ حرف عطف للتراخي، و(لم) حرف نفي وجزم وقلب، و(يرتابوا) فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، والألف فارقة، والجملة الفعلية (لم يرتابوا) لا محل لها من الإعراب لأنها داخلة ضمن صلة الموصول لعطفها على الجملة الفعلية (آمنوا)، والجملة الفعلية (وجاهدوا)

معطوفة بالواو على جملة (آمنوا)، وتعرب إعرابها، و(بأموالهم) جار ومجرور متعلق بـ(جاهدوا)، (وأنفسهم) معطوف بالواو على (أموالهم) وتعرب إعرابها، وضمير الغائبين: (هم) متصل في محل جر مضاف إليه. والجار والمجرور (في سبيل الله) متعلق بـ(جاهدوا)، وسبيل مضاف، واسم الجلالة مضاف إليه.

وقوله تعالى: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ جملة اسمية مركبة من اسم إشارة (أولاء) وهو مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف للخطاب، و(هم) ضمير منفصل للغائبين مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ثان، وحرك الميم بالضم للوصل حيث التقاء الساكنين. و(الصادقون) خبر (هم) مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من تنوين المفرد وحركته؛ والجملة الاسمية من المبتدأ الثاني وخبره (هم الصادقون) في محل رفع خبر المبتدأ الأول (أولئك).

ومن الصور البلاغية والبيانية في هذه الآية الكريمة:

ـ **الحصر** في قوله تعالى: ﴿إنما﴾ و(إن) التي هي جزء منها مفيدة أيضا للتعليل وقائمة مقام فاء التفريع.

ـ **التراخي** الرتبي في الحكاية، وتفيده (ثم) في قوله تعالى: ﴿ثم لم يرتابوا﴾ شأنها في عطف الجمل، فالتقدير: «أقول: آمنوا، ثم أقول شيئا آخر: لم يرتابوا». ويحتمل أن تكون للتراخي في الفعل، والتقدير: «آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا فيما قال النبي ﷺ من الحشر والنشر..»، وقد عطفت هذه الجملة على جملة (آمنوا) بحرف

التراخي على الرغم من أن عدم الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان لأنه وصف فيه لإفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة إشعارا باستقرار الإيمان في الأزمنة المتراخية، ولذلك تم العطف بكلمة التراخي، وقوله تعالى: ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ يحقق ذلك، أي أيقنوا أن بعد هذه الدار داراً فجاهدوا طالبين العقبى، وهذا الجهاد يجب أن يكون من أجل نصرة دين الله والدعوة إلى سبيله، أو الذود عن حياضه، أو استرداد الحقوق المغتصبة والبلاد المحتلة، لذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[9]، وقال تعالى في الدفاع عن البلاد: ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾[10].

- **القصر** في قوله تعالى: ﴿أولئك هم الصادقون﴾، وهو قصر إضافي يفيد انتفاء الإيمان عن هؤلاء الأعراب لأنهم انتفى عنهم مجموع هذه الصفات المذكورة ـ وهي الإيمان الصادق، واليقين المنافي للشك والارتياب، والجهاد في سبيل الله ـ ولا يقتضي قصر الإيمان على من يتصفون بتلك الصفات أن حقيقة الإيمان لا تقوم إلا بمجموعها، فعدُّ الجهاد في سبيل الله مع صفتي الإيمان وانتفاء الريب فيه يمنع من ذلك، لأن الذي يقعد عن الجهاد لا ينتفي عنه وصف الإيمان.

مستخلصات هادية:

لهذه الآية الكريمة ارتباط في المعنى بما قبلها، فهي مع بعض ما تقدمها توبخ ضعفاء الإيمان، وتبين أن الإسلام الظاهري المكتفي

(9) رواه البخاري ومسلم، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(10) سورة آل عمران 167/3.

بالمفهوم اللغوي غير كاف، بل لابد من تمكن الإيمان من القلوب وتحليتها بصفات أخرى تدل على اليقين والثبات. والعمل إذا كان متعلقا بالجوارح الظاهرة فهو مقام الإسلام، وإذا انطلق من اليقين المرفق بالصدق والإخلاص فهو مقام الإيمان، وإذا شفع ذلك بالعلم والمعرفة والمصابرة والمجاهدة والمراقبة فهو مقام الإحسان، كما هو مبين على لسان الحبيب المصطفى ﷺ في حديث جبريل المشهور لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان. وللإمام القشيري مقولة طيبة في هذا الصدد: «**الإيمان هو حياة القلوب، والقلوب لا تحيا إلا بعد ذبح النفوس، والنفوس لا تموت ولكنها تغيب**»[11]، ويقول أيضا: «**حقيقة الإيمان ليست مما يتناول باللسان بل هو نور يدخل القلوب إذا شرح الله صدر العبد للإسلام، كما قال تعالى: ﴿فهو على نور من ربه﴾[12]، وقال ﷺ في صفة ذلك النور: «إن النور إذا وقع في القلب انفسح له واتسع» قالوا يارسول الله هل لذلك النور من علامة؟ قال: «بلى: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»**، لهذا قال تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ **أي نور الإيمان**»[13].

فالمومنون الذين اطمأنت أفئدتهم بنور الإيمان، وتشبعت قلوبهم بالحق واليقين الصادق بعداء عن موبقات الارتياب، وعن التردد في الأخذ بالسنة والكتاب، والجبن عن التضحية والإقدام،

(11) البحر المديد 178/7.

(12) سورة الزمر21/39.

(13) أخرجه الحاكم عن ابن مسعود، وهو في كنز العمال 76/1 ح 302 وجمع الجوامع 5992، والدر المنثور 44/3، والبحر المديد178/7.

والتقاعس عن الجهاد في سبيل الله. ولما كان الإيقان وزوال الريب ملاك الإيمان أُفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيها على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة حالا وتجديدا.

في محراب الآية:

إن المتدبر في هذه الآية يجد إرشادا قيما إلى أصول الإيمان الصادق والاعتقاد الصحيح، وهذه الأصول تتمثل في أربعة عناصر هامة:

الأول إيمان بالله وحده لا شريك له،

والثاني إيمان بأن محمداً ﷺ رسول الله وخاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام،

والثالث رسوخ العقيدة في القلب بيقين وثبات، وبدون أي شك أو ارتياب،

والرابع عمل الصالحات الذي تاجُه بذل الأموال والأنفس في سبيل الله.

وتثير هذه الآية في النفس سؤالا كبيرا نوقش منذ زمان وافترق في شأنه الفقهاء وأصحاب المذاهب فرقا شتى، وهو:

هل يكفّر المسلم بارتكاب الكبائر؟

وعند أهل السنة والجماعة عامة وهم الموصوفون بـ«أهل الحق» أن الكبيرة لا تخرج المسلم عن دينه، بل ولا تضعه حتى في المنزلة

بين المنزلتين؛ وما عدا ذلك يعد عندهم خطأ واضحا، ولو اعتبر ذلك تكفيرا لانتقضت جامعة الإسلام بأسرها إلا فئة قليلة في أوقات قصيرة[14].

وحياة الإنسان إنما توزن بمدى صدقه في اختياراته وتوجهاته، وقوة إيمانه بما هو عليه من فكر وعمل ومنهج، ثم بقوة إرادته وعلو همته، وقدرته على التحمل والمثابرة والمصابرة والمدافعة في سبيل ما هو مقتنع به مقبل عليه، ثم بمدى فعاليته في المجالات العملية والوجهات السلوكية في الحياة اليومية؛ مع تأسيس ذلك كله على صحة التصور وبنائه على سلامة الاعتقاد وصدق الطوية وحسن القصد؛ ذلك بأن الحياة كلها إنما تأخذ قيمتها من تلك الجوانب: اقتناع، وصدق، وإرادة، وهمة، وعزم، وإقدام، وفعالية.

والإيمان الصادق الصحيح هو النهج القويم الذي يعبد الطريق إلى ذلك ويفتح باب الرشد للطامع في سلوك سبيل الحياة الهنيئة والوصول إلى الغايات الكريمة الفالحة، وتحقيق الفوز على كل صعيد وفي كل المراحل؛ وكم ساد رجال في تاريخ البشرية وخلد ذكرهم في الأجيال واعتُرف لهم بالمكانة الرفيعة بقوة إيمانهم وصحة اعتقادهم ورشد سلوكهم؛ وكم جنى الضالون المتذبذبون على أنفسهم وعلى غيرهم سواء كانوا جبناء متقاعسين أم كانوا مقدامين متهورين، لأن الاعتدال المبني على صحة الاعتقاد، والإقدام القائم على الحكمة والرشد وصدق الطوية، هما المؤديان إلى اكتساب القناعات الذاتية بالخير والهدى، وإلى سلوك سبيل الرشد

(14) ينظر التحرير والتنوير 267/26 وما بعدها.

والصلاح، وإلى نيل المصداقية واستدرار المحامد على كل صعيد وفي سجل التاريخ.

فالطريق واضح أمام كل سائر يبغي الهدى والرشد والرضا والسعادة، قد رسمه الوحي بتقرير الحقيقة الكبرى: أن لا إيمان إلا بصحة الاعتقاد، ولا اعتقاد بدون تصديق باللسان وتنفيذ بالجوارح وتطابق بين ما في الضمائر وما يجري على الألسنة وما تتصرف به الجوارح، مع استحضار عظمة الخالق المعبود والدأب على التضحية في سبيله بكل الإمكانات والطاقات بإخلاص وإقدام وتفان؛ وتلك أقوم طريق لرقي المجتمعات وإقامة أفضل العلاقات بين الأفراد والدول والجماعات.

10

الهداية من الله، والمن منه سبحانه، وهو البصير العليم

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ
أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(17) إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ(18)

مدخل:

يحلو لبعض الناس أن يتشدقوا بالمن بما لا يد لهم فيه ولا حول لهم ولا قوة في تحقيقه، ويدعون الفضل والطول، بينما هم في الحقيقة مدينون بأحوالهم لمن يسر أمرهم وسهل لهم سبيل هدايتهم، المطلع على أسرارهم وخباياهم ومقاصدهم وغاياتهم.

وفي هذه الآيات الأخيرات من سورة الحجرات تنبيه للإنسان وتذكير بأن نعمة الهداية من الله سبحانه وتعالى، وتحذير من

الاعتداد بالنفس والاعتزاز بما الفضل فيه للغير، ومن التبجح بالادعاءات الجوفاء وأن يُحمَد المرء بما لم يفعل.

أسباب النزول:

تقدم في أسباب نزول الآيات السابقات من السورة أن بعض الأعراب، وقيل إنهم بنو أسد، جاءوا يحلفون لرسول الله ﷺ أنهم مؤمنون صادقون في القول والاعتقاد، وقالوا له ﷺ إنهم آمنوا به واتبعوه ولم يحاربوه كما فعلت قبائل أخرى مثل هوازن وغطفان وغيرهما، وقد عرف الله عز وجل منهم غير ذلك، فأنزل هذه الآيات[1] يأمر فيها نبيه الكريم محمداً ﷺ أن يكذبهم في ادعائهم الإيمان الصحيح، وأن ينكر عليهم ذلك وينبههم إلى الفرق بين مجرد الدخول في الإسلام وبين ملابسة الإيمان للقلوب واطمئنانها به.

وعن صاحب التحرير والتنوير: «**قيل إنهم سمعوا قوله تعالى: ﴿قل لم تومنوا﴾ الآية، جاءوا إلى النبي ﷺ وحلفوا أنهم مومنون فنزل قوله ﴿قل أتعلمون الله بدينكم﴾، ولم يُروَ بسندٍ معروف وإنما ذكره البَغوي تفسيراً ولو كان كذلك لوبّخهم الله على الأيمان الكاذبة كما وبخ المنافقين في سورة براءة بقوله: ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم﴾ الآية[2]. ولم أرَ ذلك بسَنَدٍ مقبول**»[3]. لكن روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلك

(1) حكاه الطبري وغيره، انظر المحرر الوجيز 155/15 وما بعدها.

(2) سورة التوبة 42/9.

(3) التحرير والتنوير 268/26.

العرب ولم نقاتلك؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ فقههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم»، ونزلت هذه الآية: ﴿يمنون عليك... إلى قوله: ... صادقين﴾[4].

القراءات:

في قوله تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ وقف حمزة بالتحقيق مع السكت وعدمه، وبالنقل؛ وقرأ ورش من طريقيه بالنقل: (أنَ اسلَموا)؛ وقرأ بالسكت على الساكن قبل الهمز ابن ذكوان، وحفص، وحمزة، وإدريس بخلفهم؛ وقرأ ابن مسعود: (يمنون عليك إسلامهم).

وفي قوله تعالى: ﴿علي إسلامكم﴾ وقف حمزة بالتحقيق وبالتسهيل.

وقوله تعالى: ﴿أن هداكم﴾ كذا في رواية ورش عن نافع، وهي القراءة الظاهرة؛ وقرأ عاصم: (إن هداكم) بالكسر، وفيه بُعد، لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إن كنتم صادقين﴾، ولا يقال: يمن عليكم أن يهديكم إن صدقتم؛ وذكر البغوي في تفسيره أنها في مصحف عبد الله بن مسعود: (إذ هداكم)[5].

وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة وقتادة وابن وثاب وغيرهم: ﴿والله بصير بما تعملون﴾ بالتاء على الخطاب؛ وقرأها ابن كثير وعاصم في رواية أبان: (يعملون) بالياء على الغيبة، ووافقه ابن محيصن.

---

(4) رواه الحافظ أبو بكر البزار، وإسناده صحيح، ورجاله ثقات؛ وأورده ابن كثير في تفسيره 176/13.
(5) معالم التنزيل، بهامش تفسير الخازن مج 4 ج 6 ص 233.

من أجل التبيُّن والبيان:

يبين الله عز وجل في هذه الآيات للذين يدّعون الإيمان أنه سبحانه وتعالى عالم بحقيقة أمرهم ومكنون صدورهم، ويرد على مَن مَنَّ على الله بدينه فيقول: أتخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه؟! وفيه تجهيل لهم وتوبيخ وتشنيع عليهم فكأنهم وصفوه تعالى بالجهل، فبين أنه سبحانه لا يحتاج إلى أن يخبره العبد بحاله؛ ثم عطف على ذلك ببيان أنهم إن وفقوا للإيمان حقاً وصدقاً فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعتد عليهم ويمتن بأن أمدهم بالهداية والتوفيق للإيمان، إلا أنهم يزعمون ويدعون ما الله عليم بخلافه، وفي ذلك بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم؛ والله عز وجل يعلم كل مستتر في العالم ويبصر كل عمل يعملونه في سرهم وعلانيتهم، يعلم كل ما في السموات وما في الأرض من جمادات ونباتات وحيوانات وإنس وجانّ، فكيف يجهل حقيقة ما في ضمائرهم، ولا يظهر على صدقهم وكذبهم وما يدعونه من الإيمان؟

ثم يأمر سبحانه وتعالى بينه الكريم محمدا ﷺ أن يقول لهم بصيغة الإنكار: كيفَ ﴿تعلمون الله بدينكم﴾ الذي أنتم عليه؛ أي أتخبرونه بما تدينون به وتكنونه في صدوركم بقولكم ـ ا دعاء ـ آمنا! والحال أن الله عز وجل عالم بأنكم لم تؤمنوا لأنه سبحانه وتعالى بصير بكل ما يجري في الأكوان كلها، وعالم بخفايا النفوس وأسرارها! و(علّمت) و(أعلمت) في اللغة بمعنى واحد، تقول: علّمه العلمَ تعليماً وأَعلَمه إياه فتعلَّمه.

﴿والله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ أي إن علمه تعالى محيط بما في الأكوان لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا يخفى عليه معلن ولا مكنون، وذلك حاله عز وجل مع كل معلوم ﴿بكل شيء عليم﴾ مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان؛ حال واحدة لا تختلف، فليحذر الإنسان أن يدعي شيئا خلاف ما في قبله.

﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ المن: أن يذكر النعمةَ والإحسانَ باذلُهما على وجه الافتخار، ليراعيه المحسَن إليه، وهي مشتقة من الْمَنّ الذي هو القطع لأن المنعِم إنما يسدي النعمة إلى المنعَم عليه ليقطع بها حاجته إلى الغير، من دون أن يطلب مثوبة، وبهذ المعنى اتصف الحق سبحانه وتعالى بصفة (المنان) وهي فيه سبحانه على أحق معانيها وأكمل دلالاتها لأنه عز وجل «ينعم غير فاخر بالإنعام»[6] فهو سبحانه المعطي ابتداء، ولله المنة على خلقه ولا منة لمخلوق عليه تعالى الله علواً كبيرا؛ ويقال في البَشَر: منَّ عليه بيد؛ إذا أسداها إليه، ومَنَّ عليه صنيعَه: إذا اعتده عليه مُنّةً وإنعاماً، كما يقال: أنعم عليه وأفضل عليه. ومعنى اللفظ في سياق الآية أنهم يعدون إسلامهم عليك منة.

وفي إشارة إلى قول أولئك الأعراب إنهم آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه ولم يحاربوه كما فعل أقوام آخرون غيرهم يأتي قوله تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا، قل لا تمنوا علي إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ رداً عليهم

(6) لسان العرب، مادة (منن): 418/13.

وإبطالاً لما أظهروه من مزيتهم إذ أسلموا من دون إكراه بغزو، استنكارا لادعائهم وإبطالا لامتنانهم بإسلامهم؛ وهم قالوا للنبي ﷺ: (آمنا)، كما حكاه الله آنفا، وسماه هنا إسلاما لقوله: ﴿**ولكن قولوا أسلمنا**﴾ أي أن الذي منّوا به عليك إسلامٌ لا إيمان، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا مؤمنين، إذ تقدير الكلام: إن كنتم صادقين في ادعاء الإيمان فإنما هو منة الله عليكم، وإنَّ نفْعَ الإيمانِ ـ إن صح لكم إيمان ـ قاطع عليكم، فلا تعدوا إسلامكم عليّ منةً. وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال للأنصار يوم حنين: «**يامعشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟**» كلما قال شيئا قالوا: «**الله ورسوله أمنّ وأفضل**»[7].

وقوله تعالى: ﴿**بل الله يمن عليكم**﴾ يحتمل معنيين:

الأول أن يكون بمعنى ينعم، كما تقول: منّ الله عليك بكذا، أي أنعم به عليك؛

والثاني أن يكون بمعنى يذكر إحسانه فيجيء معادلا لـ(يمنون عليك)، وقال الناس قديما: إذا كفرت النعمة حسنت المنة. وإنما المنة المبطلة للصدقة المكروهة ما وقع دون كفر النعمة. وأتى بحرف الإضراب (بل) ليثبت أن ما مَنّوا به إن كان إسلاما حقا موافقا للإيمان فالمنة لله لا لهم، لأنه سبحانه هو الذي أرشدهم إليه وهداهم ووفقهم

---

(7) متفق عليه، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه في كتاب المغازي من صحيح البخاري، باب غزوة الطائف، بالفتح 47/8؛ وكتاب الزكاة من صحيح مسلم باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبير من قوي إيمانه، بالنووي 220/7 - 221.

لقبول دينه فأسلموا عن طواعية. وإنما سماه إيمانا مجاراة لزعمهم لأن المقام كون المنة لله فناسب أن يجاريهم في زعمهم أنهم آمنوا.

﴿أن هداكم للإيمان﴾ أن وفقكم لتكونوا مومنين على ما زعمتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في ادعاء الإيمان، والمعلوم دلالياً أن الهداية لا تستلزم الاهتداء.

ثم أكد الله عز وجل علمه بكل شيء، وبصره بالظاهر والباطن من أمر خلقه فقال:

﴿إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون﴾ أي مطلع بدقة وكمال على ما تأتون وما تذرون، مبصر أعمال جوارح العباد ما ظهر منها وما بطن، فمجازيهم بالخير خيرا وبالشر شرا؛ فكيف يخفى عليه ما في ضمائر الناس ومكنونات نفوسهم؟!! كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات إشارةً إلى أنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من حال هؤلاء الأعراب وكل من يدعي خلاف ما يضمر، بل يعلم السر والعلانية، فعلمه سبحانه وتعالى محيط بجميع ما غاب وخفي في الأكوان.

في التذوق الفني للآيات:

دلالة المن والنهي عنه في هذه الآيات حقيقية صريحة في معنى التقريع بالمنّة بالإحسان والاعتداد بالفضل وحسابه على المتفضّل عليه والافتخار به عليه، كما في اللسان[8] وقد يكون المن

(8) لسان العرب، مادَة (منن) 417/13 وما بعدها.

صريحاً بذكر أوجه الإحسان والمعروف المقدم للآخري مثل قول سبرة بن عمرو الفقعسي ممتنا:

أتنسى دفاعي عنك إذ أنت مسلم
وقد سال من ذل عليك قراقر

وقد يكون بالتعريض بأن يذكر المانّ من إحسانه للممنون عليه ما يفهم منه الاعتداد عليه والافتخار، مثل قول الراعي ممتنا بمؤازرة عبد الله ابن الزبير مخاطبا الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان:

فـآزرتُ آل أبـي خُـبَـيب وافـداً
يـومـاً أريـد لـبـيـعـتـي تـبـديـلا

وفي قوله تعالى ﴿أتعَلّمونَ﴾ مبالغة في الدلالة على أنهم تكلفوا وتعسفوا في ادعاء حصول الإيمان لهم وإقناع الرسول ﷺ فأمره الله عز وجل أن يبلغهم أن الإيمان منتف عنهم وأنه سبحانه يعلم خلاف ما يدعون.

والباء في قوله تعالى ﴿بدينكُمْ﴾ زائدة لتأكيد لصوق الفعل بمفعوله، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾[9].

والاستفهام في ﴿أتعلّمون الله بدينكُم!؟﴾ مستعمل في التوبيخ، وقد أيده بجملة الحال في قوله: ﴿والله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾. وفي هذا تجهيل إذ حاولوا إخفاء باطنهم عن الله المطلع على كل شيء. وجملة ﴿والله بكل شيء عليم﴾ تذييل لأن ﴿كل شيء﴾ أعم من ﴿ما في السموات وما في الأرض﴾ فإن الله يعلم صفاته ويعلم الموجودات التي هي أعلى من السموات كالعرش.

---

(9) سورة المائدة 7/5.

والفعل (يمنون) في قوله تعالى: ﴿يمنون عليك﴾ مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فيه ضمير متصل في محل رفع فاعل، و﴿عليك﴾ جار ومجرور متعلق بـ(يمنون). وفي المصدر المسبوك من (أن) و(الفعل) في قوله عز وجل: ﴿أن أسلموا﴾ احتمالات:

فيحتمل أن يكون في محل نصب مفعولاً به لـ(يمنون)،

ويحتمل أن يكون مفعولا لأجله، والتقدير: يعدون إسلامهم منة عليك، فحذف الجار وعدي الفعل إلى مفعوله: المصدر. و﴿أسلموا﴾ جملة فعلية لا محل لها من الإعراب صلة الحرف المصدري.

و(لا) في قوله تعالى ﴿قل لا تمنوا علي إسلامكم﴾ ناهية جازمة، والفعل المضارع (تمنوا) مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، و(عليّ) جار ومجرور متعلق بـ(تمنوا)، و(إسلامكم) أي بإسلامكم، فنصب بنزع الخافض أو تضمين الفعل بمعنى الاعتدال؛ والجملة الفعلية (لا تمنوا علي إسلامكم) في محل نصب مفعول به: مقول فعل الأمر (قل).

وجيء بالمضارع في (يمنون) مع أن منّهم بذلك حصل فيما مضى لاستحضار حالة منّهم كيف يمنون بما لم يفعلوا مثلما استعمل المضارع في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾[10]؛ وجيء بالمضارع في قوله (بل الله يمن عليكم)

(10) سورة البقرة 212/2.

لأنه مَنٌّ مفترض لأن الممنون به لما يقع وفيه من الإيذان بأنه سيمنّ عليهم بالإيمان ما في قوله: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)، وهذا من التفنن البديع في الكلام ليضع السامع كل فن منه في قراره، ومثلهم من يتفطن لهذه الخصائص.

وفي قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (بل) حرف إضراب للاستئناف لا عمل له، وكسر آخره لالتقاء الساكنين، ولفظ الجلالة مبتدأ مرفوع للتعظيم بالابتداء وعلامته الضمة الظاهرة، و(يمنّ) جملة فعلية الفاعل فيها ضمير مستتر جوازا تقديره هو، و(عليكم) جار ومجرور متعلق بـ(يمن)، والميم فيه علامة الجمع المذكر، و(أن) مصدرية، والفعل (هداكم) ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر.. وهي جملة فعلية لا محل لها من الإعراب صلة الحرف المصدري (أن)، و(أن) وما بعدها بتأويل مصدر محله:

إما في محل نصب مفعول به للفعل (يمن) أي يمن عليكم هديَكم،

وإما في محل جر بحرف جر محذوف بتقدير: بأن هداكم.. أي بهديكم، فحذف الجار والمجرور وعديّ الفعل إلى المصدر.

وأتي بالإيمان معرفا بلام الجنس لأنه حقيقة في حد ذاته وأنهم ملابسوها؛ وفي قوله تعالى: (إن كنتم صادقين): (إن) حرف شرط، وضمير المخاطبين (ت) في (كنتُم) ضمير متصل مبني على الضم في محل رفع اسم الفعل الناقص (كان) وهو ماض مبني على السكون لاتصاله بتاء الخطاب، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه،

تقديره: إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان فلله المنة عليكم؛ و(صادقين) خبر (كان) منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من تنوين المفرد وحركته.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (إن) حرف نصب وتوكيد مشبه بالفعل، ولفظ الجلالة اسم (إن) منصوب، و(يعلم) فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، والفاعل ضمير مستتر، و(غيب) مفعول به منصوب وهو مضاف، و(السموات) مضاف إليه مجرور، و(والأرض) عاطف ومعطوف تابع للمعطوف عليه (السموات) في جره، والجملة الفعلة (يعلم غيب السموات والأرض) في محل رفع خبر (إنّ)، والجملة الإسمية (والله بصير بما تعملون) مكونة من مبتدإ وخبر وشبه جملة من جار ومجرور (بما) متعلق بالصفة (بصير)، والجملة الفعلية (تعملون) لا محل لها من الإعراب صلة الموصول (ما).

وهذه الآية الكريمة تذييل ذُيّل به تقويمهم على الحق ليعلموا أن الله لا يُكتم، وأنه لا يُكذَب، لأنه يعلم كل غائبة في السماء والأرض فإنهم كانوا في الجاهلية لاتخطر ببال كثير منهم أصول الصفات الإلهية. وربما علمها بعضهم، مثل زهير في قوله:

فلا تكتُمُنّ الله ما في نفوسكم
ليخفى، فمهما يُكتم الله يعلم

والجملة الخبرية (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) حال مؤكدة لتشنيعهم، وأُكِّدت بـ(إن) لأن المخاطبين كانوا بحال من ينكر أن الله يعلم الغيب فكذبوا على النبي ﷺ مع علمهم أنه مرسل

من الله فكان كذبهم عليه مثل الكذب على الله. وقد أفادت هذه الجملة تأكيد مضمون جملتي (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) و(والله بصير بما تعملون)، ولكن هذه زادت بالتصريح بأنه يعلم الأمور الغائبة لئلا يتوهم متوهم أن العمومين في الجملتين قبلها عمومان عرفيان قياسا على علم البشر. وتقديم المسند إليه (الله) على المسند الفعلي (يعلم) لإفادة التقوية مثل: هو يعطي الجزيل. و(ما) في قوله تعالى (بما تعملون):

ـ إما أن تكون مصدرية، و(تعملون) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، والجملة الفعلية (تعملون) صلة حرف مصدري لا محل لها، و(ما) وما بعدها بتأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلق بـ(بصير)، بمعنى: مطلع على أعمالكم أو بصير بأعمالكم؛

ـ وإما أن تكون اسما موصولا مبنيا على السكون في محل جر بالباء فيكون العائد إلى الموصول ضميرا منصوب المحل لأنه مفعول به، أي بالذي تعملونه.

وجملة ﴿والله بما تعملون بصير﴾ معطوفة على جملة ﴿إن الله يعلم غيب السموات والأرض﴾ من باب عطف الأخص على الأعم، لأنه لما ذكر أنه يعلم الغيب وكان شأن الغائب أن لا يُرى عطف عليه علمه بالمبصرات احتراسا من أن يتوهموا أن الله يعلم خفايا النفوس وما يجول في الخواطر ولا يعلم المشاهدات، نظير قول الفلاسفة: إن الخالق يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، ولهذا أوثر هنا وصف (بصير).

ويتحصل من ذلك أن هذه الآيات الثلاث تشتمل على عشر جمل فعلية، يضاف إليهن فعل ناقص واحد، وست جمل اسمية؛ أما الأسماء عامة فواحد وعشرون، والضمائر ثمانية، والحروف اثنان وعشرون، فيها حروف العطف والشرط والنصب والجزم.

ومن تجليات روعة القرآن وبلاغته التئام آخر السورة بأولها، ففي البدء حث على مداومة التقوى واجتناب الافتيات على الله ورسوله؛ وفي الختم تقرير أن الله لا يخفى عليه سر ولا علن، وأفاد الحث على خوفه في السر، والاحتراز من أمنه في العلانية فيلزم من ذلك لزوم التقوى والاحتراز من التقدم بين يدي الله ورسوله.

لطائف مستخلصات:

مما يمكن استخلاصه في سياق نظم هذه الآيات الكريمات من اللطائف:

أن مسمى الإيمان هو غير مسمى الإسلام[11]، فلقد نفى الله تعالى كون ما ادعاه أولئك الأعراب إيمانا، وسماه إسلاما، كأنه قيل: يمنون عليك بما هو في الحقيقة إسلام وليس بإيمان، وفائدة هذا التمييز أن يحتاط الإنسان لنفسه فيجتهد لتحقيق المعنى الصحيح للإسلام، ثم يجدّ لإدراك مرتبة الإيمان ثم مرتبة الإحسان كما تميزت مفاهيم هذه الصفات بعضها عن بعض في حديث جبريل المشهور حيث أعطى النبي الكريم ﷺ بيانات لحقائق الإسلام والإيمان والإحسان[12].

---

(11) راجع في تعريف الإسلام والإيمان وتمايزهما ص 176 – 179 أعلاه.

(12) راجع الحديث وتخريجه في ص 22 و177 أعلاه.

ومن المستخلصات أيضا أن ادعاء الإيمان وإن صح فلله المنة على (المومن) بالهداية إليه والتوفيق لا له.

ومنها أن في قوله تعالى: ﴿يمنون عليك﴾ زيادة بيان لقبيح فعلهم، وذلك لأن الإيمان له شرفان: أحدهما بالنسبة إلى الله عز وجل، وهو سلامة الاعتقاد القلبي فيه سبحانه وتعالى وتنزيهه عن الشرك وتوحيده في العظمة وظهور ذلك على الجوارح؛ وثانيهما بالنسبة إلى المومن، وهو أن ينزه نفسه عن الجهل ويزينها بالحق والصدق، فأولئك الذين ادعوا الإيمان وتبجحوا به لم يكونوا يطلبون بإسلامهم توحيد الله ولا شرف أنفسهم، بل منّوا على الله ورسوله بـ(إيمانهم)، ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل لشكروا، ولذلك كذبهم الله عز وجل.

والتكذيب إما أن يتعلق بالمخبَر عنه حين لا يكون له وجود أصلا في الواقع، أو له وجود على غير الصورة التي نقل بها الخبر؛ وإما أن يتعلق بالمخبر حين لا يكون للخبر وجود في اعتقاده أو لم يكن له وجود على الصورة المنقول بها الخبر. فالله تعالى كذب أولئك الأعراب في قولهم (آمنا) على الوجه الأول، أي إنهم ما آمنوا أصلا وما صدقوا فلم يصلوا بعد إلى مرتبة الإيمان فيحق لهم الاتصاف به.

وقوله تعالى: ﴿بل الله يمن عليكم﴾ فيه من روعة الأسلوب الرباني الحكيم تعليم الخلق حسن الأدب، حيث لم يقل (لا تمنوا علي بل لي المنة عليكم حيث بينت لكم الطريق المستقيم)، وفي مقابلة هذا الأدب قال تعالى في حق رسوله الكريم ﷺ: ﴿وإنك

﴿لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[13]. ولما لم يقل (يمن عليكم أن أسلمتم) بل قال: (أن هداكم للإيمان) دل على أن إسلامهم إنما كان ضلالا ونفاقا فلم يمن به عليهم، لأن إرسال الرسل بالآيات هداية، والأمر مشروط بالصدق ولذلك قال تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾.

وفي الآيات إشارة إلى أن التدين وإظهاره، والإيمان واعتقاده ينبغي أن يكون لله، فلا يقبل شيء من ذلك لغير الله، ومن كان إسلامه لغير الله أو إيمانه شكليا ادعائيا فعمله مرفوض وادعاؤه مردود عليه. وذلك يعني أيضا تقبيح تزكية النفس، ويزداد قبحا بالكذب، وقد جاء هذا التقبيح موضحا في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم، فلا تزكوا أنفسكم، هو أعلم بمن اتقى﴾[14].

ويبين الله عز وجل في آيات كثيرة غير هذه الآيات موضوعنا، أنه عالم بما تنطوي عليه الضمائر وما تنطق به المظاهر، ما يعلن وما يسر، وأن السر عنده كالعلانية، فلا يخفى عليه شيء، فمنها هذه الآيات البينات:

- ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه..﴾[15].
- ﴿واعلموا أن الله يعلم ما بأنفسكم فاحذروه﴾[16].

(13) سورة الشورى 49/42.
(14) سورة النجم 32/53.
(15) سورة ق 16/50.
(16) سورة البقرة 233/2.

ـ ﴿فلنقصّنّ عليهم بعلم، وما كنا غائبين﴾[17].

ـ ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾[18].

ففي تلك الآيات أكبر واعظ زاجر: إنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون؛ مع ما يترتب على ذلك من الحساب والجزاء. فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جل وعلا ليس بغائب عنه، وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي فمحاسبه ومجازيه، لانَ قلبُه وخشيَ ربه وأحسن وأخلص عمله لله جل علاه؛ أما إن رأى شيئا من أعماله وأحواله من نفسه فذلك شِرك، وأما إن رآها لنفسه فذلك مكر، وأما إن رآها من ربه بربه ولربه فذلك هو التوحيد.

في محراب الآيات:

الغيب شيء مستور عن البشر، مكشوف لدى رب البشر، وجميع الغيوب عيان لله تعالى فليس هناك غيب غائب عن علمه سبحانه وتعالى، وكيف يغيب عنه وهو موجده؟! يبصر ببصره القديم الكامل ما كان وما هو كائن وما سيكون؛ وعلى مذهب الصوفية: العلم والبصر واحد لأن بصره سبحانه يتعلق بالمعدوم كما يتعلق به العلم؛ وعلى مذهب علماء الكلام: متعلق البصر خاص بالموجودات ومتعلق العلم أوسع من ذلك.

---

(17) سورة الأعراف 7/7.

(18) سورة يونس 61/10.

فليذكر الإنسان أن الله العليم السميع البصير يعلم ما في سماوات الوجود المادي من الجواهر والمظاهر، ويعلم سماوات القلوب والأرواح من السر واليقين، وما في أراضي النفوس من عدم القناعة بعلم الله، محيط علمه بكل شيء. قال ابن عطاء الله السكندري: «**استشرافك أن يعلم الناس بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك**»[19]، وكل من غلب عليه الجهل أو العُجب حتى منّ على ربه بعقيدته أو عمله أو حاله، أو بما أعطاه، يقال في حقه: ﴿**يمنون عليك أن أسلموا**﴾.. الآية.

لكن المؤمن الصادق ينسب الأمر إلى بارئه والفضل إلى المنعم حقاً به، ويعلم أن المنة لله الحنان المنان، وأن ما به من نعمة فمن الله، وأن أعظم نعم الله على عباده أن يجعلهم مؤمنين ويهديهم إلى سبيل الرشد والصلاح واليقين، وأن المؤمن الصادق في إيمانه يعتبر أحواله كلها خيراً له، لكن الفضل في ذلك للعزيز الكريم سبحانه، كما حدّث بذلك الحبيب الهادي الشفيع ﷺ في الحديث: «**عجبا لأمر المومن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له؛ وليس ذلك إلا للمومن**»[20].

حكى البيضاوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه»[21].

---

(19) الحكم العطائية: 180/7.

(20) نقدم تخريجه في ص 178، حاشية 8.

(21) تفسير البضاوي 419/2، ولم أعثر عليه في كتب السنة.

خاتمة

كلما قرأ المومن القرآن ازداد طمأنينة وانشراحا، وكلما تمعن فيه وتأمل ازداد إيمانا ويقينا، وكلما تدبر وتفكر ازداد معرفة وفهما؛ غير أن ذلك كله لا يعفي من الاطلاع على التفسيرات والتأويلات المختلفة لآي الذكر الحكيم: ابتداء مما ورد في السنة على لسان النبي الأمين ﷺ الذي تلقى القرآن بأمانة من الأمين جبريل عليه السلام، ووعده الله عز وجل بجمعه وبيانه: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾[1]، وأمره الحق سبحانه وتعالى ببيانه للناس ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[2]، واعتبر هذا البيان من صميم مهمة النبوة والرسالة؛ والأمر بالبيان قائم على مر الأزمان لكل الأجيال وفي كل مكان، لعل الناس يحسنون الفهم والتدبر والوعي والتفكر. ثم ما روي عنه ﷺ في سيرته العطرة وهو الذي كان يتخلق بالقرآن ويتصرف بالقرآن ويقضي بالقرآن ويعيش بالقرآن، حتى وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأنه: «**كان خلقه القرآن**»[3]. ثم أقوال المفسرين وتأويلاتهم

---

(1) سورة القيامة 16/75 – 18.

(2) سورة النحل 44/16.

(3) حديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد 308 والنسائي في السنن 58/6 وأحمد في المسند 91/6، مسند أبي الفضل النوري.

يستأنس بها القارئ المتدبر لتحصيل الفهم في سياقه، ومقاربة القصد بمنطوق التعبير ومفهومه، فلعل الله يحدث في البصيرة انفتاحا، وفي الصدر للفهم الصحيح والاستنتاج القويم والتأويل الرشيد انشراحاً.

بذلك المنهج حاولت هذه التأملات في سورة الحجرات أن تسبر أغوارها، وتتمثل معانيها ودلالاتها، وتكتشف ما أمكن من أسرارها، وتربط المأثور من تفاسيرها بواقع الأمة في حاضرها، وحال مجتمعاتنا الإسلامية في راهن حالها؛ بغية نشر حوافز الإيمان والرشاد، وزرع بذور الإصلاح في نفوس العباد، والتنبه إلى ما يزخر به كتابنا العزيز من توجيهات ربانية بانية للشخصيات الفردية والجماعية، بالطرق والمناهج الفعّالة الإيجابية؛ استنارة بما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من تحذيرات بليغة من المزالق المهلكة والخصال الموبقة، والعصبيات المفرقة المنتنة، وترغيب محبب في الأخلاق الفاضلة والصفات الجميلة والعلاقات الودية، مما من شأنه أن يطهر المجتمع ومؤسساته من المفاسد والرذائل، وينشر بين أفراده وجماعاته المحامد والفضائل، ويبني الفرد الصالح، ويؤسس الشعب السليم الراشد، ويأخذ بيد الأمة إلى مدارج الحضارة الحقيقية القائمة على القيم الإنسانية الفطرية والخصال الحميدة المؤلفة.

وأمة الإسلام أولى بذلك وأحق، فهي صاحبة النور القرآني الساطع، والهدي المحمدي الراشد، إنه الوحي المشتمل على منهج الرشد، المحفز على ارتقاء درجات المجد؛ القرآن العظيم «حبل الله

المتين، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[4].

ولقد تمخض التعامل مع سورة الحجرات والتأمل في آيها وفقرها عن ترسيخ قناعة كانت حافزاً إلى الاشتغال بالإصلاح الاجتماعي واستمداد معالمه من القرآن الكريم: بأن الأمة في أمس الحاجة إلى مثل هذه الجهود من أجل إنقاذها من وهدة التخلف وهدر القيم والتردي في الأخلاق وفي المعاملة، وما جر عليها هذا التردي من ويلات وانتكاسات واستضعاف ومشاكل وأهوال على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي حتى صارت المجتمعات الإسلامية بلا قيم ولا مبادئ، مع أنها هي مجتمعات القيم المثلى والمبادئ العليا، وهي المحصنة من كل الأمراض الفتاكة والأدواء الخطيرة التي رمانا بها الآخرون وانسلوا!!

وبعد فأسأل الله العلي القدير أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعل أعمالنا صالحة خالصة لوجهه الكريم، كما أسأله أن ينفعنا وينفع بنا، إنه سميع مجيب.

(4) حديث رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

المسارد العامة

1 ـ مسرد الأحاديث النبوية
2 ـ مسرد المصطلحات البلاغية
3 ـ مسرد المطالب المعرفية
4 ـ مسرد المصادر والمراجع
5 ـ مسرد المحتوى

1

مسرد الأحاديث النبوية

ملحوظة: نظرا لقلة الأحاديث القدسية فقد أدمجت في هذا المسرد الذي رتبت الأحاديث فيه أبجديًا على أطرافها.

رأس الحديث	الصفحة	رأس الحديث	الصفحة
احترسوا من الناس بسوء الظن..	126	إن الرجل ليتكلم بالكلمة..	38
إذا ظننت فلا تحقق..	147, 144	إن فقههم قليل..	204
إذا المسلمان حمل أحدهما..	79	إنك إن اتبعت عورات الناس..	129
اذكروا الفاجر بما فيه..	116	إنكن لأنتن صواحب يوسف..	21
اذهب إلى أسامة بن زيد..	122	إن الله تعالى لا ينظر إلى أحسابكم..	128
أرأيت لو مضمضت..	20	إن الله لا ينظر إلى صوركم	128, 115
استفت قلبك..	60	إن الله يقبل توبة العبد..	188
الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله (حديث جبريل)..	177, 22	إن المستهزئين بالناس..	118
الإسلام علانية..	61	إن المقسطين في الدنيا..	85
أكرمهم عند الله أتقاهم..	164	إن النور إذا وقع	198
ألا وإن في الجسد مضغة..	60	إني لأعطي رجالا	174
أما ترضى أن تعيش حميدا	35	أو مسلم	انظر: إني لأعطي..
أما معاوية..	139	انظر: إني لأعطي ..	128, 125, 124
أنتم بنو آدم..	153	إياكم والظن	139
انصر أخاك..	83	ائذنوا له	119
إن الأمير إذا ابتغى الريبة..	146, 129	أين أنت من الاستغفار	147
إن ابني هذا سيد..	87	أين فلان وفلان	188
إن التبين من الله..	59	باب التوبة مفتوح	22
إن دماءكم وأموالكم..	140	بل هو الرأي والحرب	89

رأس الحديث	الصفحة	رأس الحديث	الصفحة
تقتل عمارا	24	ما بالشعر بعثت	134
التقي ملجم	03	ما من مولود يولد	123
ثلاث من لم تكن فيه	147	ما صام من ظل يأكل	73
ثلاثة دبت لهذه الأمة	221 - 220	ما لي أرى خضرة اللحم	103
حبل الله المتين	126	ما نهيتكم عنه فاجتنبوه	111
الحزم سوء الظن	91	ما يبكيك	118
حكم الله في الفئة الباغية	89	ما يقول ذو اليدين	85, 80
خذوا على أيدي سفهائكم	131	مثل المومنين في توادهم	70
ذكرك أخاك	119	المسلم أخو المسلم	187
رب اغفر لي	79	المسلمون عدول	110
سباب المسلم فسوق	187	من حج فلم يرفث	156
الصلوات الخمس والجمعة	218, 178	من حق المومن	119
عجبا لأمر المومن	162	من سره أن يكون أكرم	118
العلماء ورثة الأنبياء	140	من عير أخاه بذنب	197
الغيبة أشد من الزنى	131	من قال لأخيه ياكافر	90
الغيبة أن تذكر	165	من قاتل لتكون	218
فاظفر بذات الدين	90	من قتل دون نفسه	166
قتال المسلم كفر	88	من قرأ سورة الحجرات	194
قتال المومن كفر	110	من نفس عن مومن	162
الكبر بطر	219	المومنون في الدنيا على ثلاثة	106
كان خلقه القرآن	140, 86	نحن معاشر الأنبياء لا نورث	106
كل المسلم على المسلم حرام	118	النساء لحم على وضم	103
كمثل الجسد: ح: مثل	119	هلا قلت إن أبي هارون	38
المومنين في توادهم	20	وإن مما ينبت الربيعُ	127
كنا نعد لرسول الله	86, 85	ولا تجسسوا	85
كيف تقضي إذا عرض لك	108	وما يزال عبدي يتقرب إلي	166
لا تحاسدوا ولا تناجشوا	79	ومن بطأ به عمله	82
لا تظهر الشماتة	46	يا ابن أم عبد	161
لا يحل لمسلم أن يروع	136	يأيها الناس ألا إن ربكم واحد	207
لا يومن أحدكم حتى يكون هواه	145	يامعشر الأنصار ألم أجدكم	128
لما عرج بي مررت بقوم	35	يامعشر من أسلم بلسانه	89
ما أطيبك وأطيب ريحك	145, 128	يخرجون على خير فرقة	

2

مسرد المصطلحات البلاغية

ملحوظة: أثبتت في هذا المسرد صفحات ورود المصطلح بجميع بنياته واشتقاقاته، ورتبت المصطلحات أبجديا على أوائلها، من غير مراعاة أداة التعريف (ال).

المصطلح	الصفحة
الإبهام	133
الاحتراز	214
الإرشاد	95، 175، 193، 199، 207
الإسناد	134
الاستثناء	46، 111
الاستدراك	67، 180، 182
الاستعارة	44
الاستفهام	133، 134، 135، 209
الاستنكار / الإنكار..	203، 205، 207، 212
الأسلوب / أساليب..	67، 112، 113، 133، 140، 157، 158، 215
الإضمار	96
الاعتراض	159
الاكتفاء	106
الالتفات	67
الأمر	50، 124، 132، 133، 136، 137، 143، 167، 209، 219
الإنشاء / الإنشاء الطلبي	44، 45، 96، 132، 157، 158
الإيجاز	65

المصطلح	الصفحة
البديع	65، 93، 156، 180، 211
البلاغة / بلغ / البليغ / بلاغة التعبير..	65، 67، 69، 157، 158، 196، 214، 220
البيان / التبين / البين	65، 66، 67، 70، 73، 93، 112، 113، 137، 156، 173، 196، 215، 219
التأويل	69، 91، 92، 95، 113، 114، 135، 136، 137، 138
التتميم	95
التخصيص	94
التذييل	159، 209، 212
التراخي	196، 197، 199
الترجي / أسلوب الترجي	96
التشبيه	44، 45، 107، 134، 137، 142، 159، 176
التصديق، الصدق	72، 191، 192، 193، 194، 197، 189، 190، 198 ـ 207، 212 ـ 218
التصريح	140، 175، 180، 213
التصوير/ التصور / الصورة / الصور	67، 69، 93، 131، 134، 137، 150، 156، 158، 176، 180، 183، 196، 215
التعبير	65، 66، 67، 93، 96، 112، 113، 143، 150، 156، 157
التعريض	46، 140، 180، 209
التعريف	114
التعليل	95، 158، 192، 195، 196
التعميم	94، 134
التغاير	65
التغليب	106
التفريع	208
التقديم	66
التقرير	45، 95، 132، 133، 134، 184
التقليل	93
التقييد	46
التكذيب	215

المصطلح	الصفحة
التكرار / التكرير..	208
التلقي / المتلقي..	47، 48، 69، 96، 143، 157
التمثيل	134، 141
التناسب / المناسبة	173، 181
التنكير / النكرة	46، 67، 114
التهديد	113
التوبيخ	66، 135، 197، 203، 209
التوكيد	45، 63، 68، 95، 96، 134، 137، 140، 183، 184، 188، 195، 208، 209، 212، 213
الحذف	45
الحصر	46، 67، 95، 191، 196
الحق / الحقيقة التحقيق	45، 72، 112، 134، 193، 202، 204، 205، 208، 211، 212، 214، 215، 220
الحكاية	196
الخبر / أسلوب خبري / جملة خبرية..	45، 62، 66، 68، 69، 78، 113، 132، 133، 158، 184، 212
الخطاب، مخاطبة..	36، 41، 42، 48، 65، 67، 112، 113، 133، 135، 157، 159، 180، 182، 211
الدلالة / الدليل / الأدلة	46، 63، 64، 67، 69، 71، 92، 93، 113، 125، 133، 145، 157، 159، 176، 181، 183، 208، 209، 224
الذم / صيغة إنشاء الذم..	110، 112، 115
الرمز	140
الزيادة	209
السياق	42، 64، 67، 92، 194، 214، 220
الشرط / الشرط / أسلوب الشرط / الجملة الشرطية..	66، 98، 142، 272، 287، 317، 42، 44، 45، 66، 67، 95، 181، 183، 186، 187، 191، 211
الطباق	67
العطف	66، 96، 158
القصر	197
الكناية	66، 140، 158

المصطلح	الصفحة
لحن الخطاب..	152، 180
اللفظ والمعنى	67، 81، 86، 93، 95، 133، 140، 159، 168، 174، 179، 180، 181، 197، 206، 208، 213، 214
المبالغة / الغلو	59، ، 115، 135، 136، 209
المبنى / البناء	180، 181، 182
المجاز	45، 134
المقابلة	71
المقال	96
المقام	45، 47
المناسبة	انظر التناسب.
النداء / أسلوب النداء..	22، 39، 53، 66، 168، 199، 206، 216، 230، 236، 249، 16، 27، 36، 41 ـ 44، 54، 112، 132، 133، 136، 143، 152، 157، 165
النظم	42، 182، 214
النهي / أسلوب النهي..	28، (45)، 68، 109ـ125، 116، 128، 130ـ139، 167، 175، 180، 184، 192، 208، 210
الوصل	214

3

مسرد المطالب المعرفية

المصطلح	الصفحة
آداب المتعلم	47، 50
الإثم	124، 126، 133، 137، 144
الإحسان..	198، 206، 207، 208، 209
الإخلاص..	189، 193، 217، 221
الأداء	68
الاستقامة	151
الإسلام والإيمان	91، 259، 264، 298، 322، 264، 265، 266، 268، 271، 273، 274، 275، 278، 279 ـ 281، 285، 291، 297 ـ 299، 300 ـ 312
الإصلاح، إصلاح ذات البين، الصلح، أصلحوا	111، 122، 126، 129، 130، 131، 136، 143، 245، 83، 88، 94، 199 ـ 201، 215، 216
أصول الإيمان والاعتقاد	199 ـ 201، 215، 216
الاعتقاد..	199، 200، 201، 203، 215
الإعلام	52، 54، 63 ـ 65، 69، 72
الإفك	141
الإيمان..	مواضع كثيرة في صفحات كثيرة
البغي، الباغي	83، 84، 87 ـ 89
البهتان، بهته..	141
التجسس، تجسسوا..	126 ـ 129، 137 ـ 139، 145، 146، 159
التحسس	127
التحمل	68
التكنية، الكنية، حسن التكنية..	110

المصطلح	الصفحة
التقوى، الأتقى، أتقاكم، الأتقياء، الاتقاء..	(24 ـ 26)، 40، 61، 65، 68، 86، 99، 108، 137، 132، 143، 151، 156 ـ (168)، 173 ـ 175، 189، 214
التوبة، يتوب، تواب..	(119)، 136، 137، 143، 167، 170، 179، 180، 185، 187، 188
التيقن / اليقين / الإيقان	97، 191، 193، 197 ـ 199، 218، 219
الجهاد	(191 - 192)، 194، 197، 198، 199
خبر الواحد	69، 125
الرحمة	99
الزكاة	89، 192
السخرية، يسخر، الساخر	105، 108، 110، 112 ـ 118، 159
الصبر، المصابرة	42، 43، (52)، 200
الصحابة	92 - 93
الصغائر	142، 146
الصلح	90
طائفة، طائفتان	80، 81، 86،87، 93، 95
طبقات النسب	159
الظن، سوء الظن، كثير الظن، بعض الظن، الظن المحمود والمذموم..	124 - 129، 133، 136 - 139، 142 — 146، 159
العدل، العادل	84، 85، 94
العصيان	61، 62، 66
الغيبة، يغتب، اغتاب، اغتياب، مغتاب..	72، 130 ـ 132، 134 ـ 135، 137، 139 ـ 145، 159
الفاسق، الفسق، الفسوق	56 - 58، 61، 62، 66، 68 - 71، 78، 101، 108، 109، 142، 166
الفتنة، الفتن	98، 90، 92، 95
الفتنة الكبرى	87، 88، 91، 92
فِرقة، الفُرقة	90، 93، 105، 114
الفئة الباغية	83، 88، 89، 90 - 92
الفئة العادلة	92
القتال، الاقتتال، اقتتلوا، المقاتلة	82، 887 - 91

المصطلح	الصفحة
القسط، أقسطوا، المقسطين، الأقساط	84، 85، 94
القياس، القياس الظاهر	27 – 29، 48، 122، 142، 213، 214، 48، 81، 125، 142، 213
الكبائر	62، 142، 199
الكفاءة	164
الكفر	61، 62، 66، 71، 142
لقب، الألقاب، التلقيب..	108، 111، 112
اللمز، تلمزوا، يلمزون..	105، 107، 108، 110، 112، 113، 115، 116، 118، 159
مجهول الحال	69
المعروف	117
المفهوم	69
المن	202، 205 – 208، 210 – 212، 215، 218
المنزلة بين المنزلتين	199، 200
المنكر	117
النبز، التنابز، ينبز	108، 109، 112، 113، 116، 159
النسب، الانتساب..	153، 155، 156، 161، 162، 163، 165، 166
النصح، الناصح، النصيحة، استنصح..	81
النفاق، منافق، المنافقون	72، 174، 186، 203
الهمز، الهمزة، يهمز، يهمزون..	105، 107، 108، 110، 118

4

مسرد المصادر والمراجع

- الآداب العامة في سورة الحجرات: عبد المنعم أحمد يونس، من الأدب الإسلامي (دون دار طبع ولا تاريخ).
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: الأمير ابن بلبان الفارسي) (ت739هـ)، قدم له وضبط نصه كمال يوسف الحوت، ط(1) دار الكتب العلمية، بيروت 1407 : 1987.
- الإحكام: الآمدي: ت 631 هـ : 000م.
- إحياء علوم الدين: الإمام الغزالي.
- أسباب النزول: الواحدي: ت 000 هـ : 000م.
- الاستيعاب: ابن عبد البر (ت463هـ) تحقيق محمد علي البجاوي، ط(1) دار الجبل، بيروت 1992.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين ابن الأثير (ت630 هـ)، تصحيح عادل الرفاعي، ط(1) دار إحياء التراث العربي، بيروت 1417 : 1996.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين الجكني الشنقيطي (ت1393هـ)، مكتبة المعارف، الرباط 1421 : 2000.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (ت791هـ) ، ط(1) دار الكتب العلمية، بيروت 1408 : 1988.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: ابن عجيبة الحسني (ت1224هـ) تحقيق عمر الراوي، ط(1) دار الكتب العلمية، بيروت1423 : 2002.
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ابن رشد (ت595هـ) ط. دار الفكر، بيروت (د.ت).
- التاريخ الكبير للبخاري: ت 000 هـ : 000م.
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور (ت1379هـ)، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر (د.ت).
- تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول: خالد العك: ت 631هـ : 000م.

- تفسير القرآن العظيم: الحافظ ابن كثير (ت774هـ) تح. الخمسة، ط(1) الفاروق الحديثة، القاهرة 1421 : 2000.
- التفسير الكبير: مفاتيح الغيب: الفخر الرازي(ت606هـ)، ط(9) دار الفكر، بيروت 1428 : 2007.
- تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك: الجلال السيوطي (ت911هـ)، ط. دار الفكر، بيروت (د.ت).
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الطبري (ت310هـ)، ط. دار الفكر، بيروت 1408 : 1988.
- الجامع الصحيح: الإمام البخاري (ت256هـ) بفتح الباري، ط(1) دار الفكر، بيروت 1421 : 2000.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم: ابن رجب الحنبلي (ت795هـ)، تحقيق الأحمدي أبو النور ط(1) دار السلام، مصر 1419 : 1998.
- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (ت671هـ)، ط(2) دار الكتاب العربي، بيروت 1372: 1952.
- السراج المنير.. أحمد عبد الجواد
- شرح الحكم العطائية: محمد سعيد رمضان البوطي، ط(4) دار الفكر، دمشق 1430 : 2009.
- الدر المنثور: السيوطي: ت 000 هـ : 000م.
- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني (ت474هـ) تعليق محمود شاكر، ط(3) القاهرة 1413 : 1992.
- الروض الأنف: الإمام السهيلي (ت581هـ) ، ط(1) دار الكتب العلمية، بيروت 1418 : 1997.
- روضة التعريف بالحب الشريف: لسان الدين ابن الخطيب.
- زاد المسير: ابن الجوزي: ت 000 هـ : 000م.
- سراج القارئ المبتدي، وتذكار المقرئ المنتهي: شرح منظومة حرز الأماني ووجه التهاني، الرعيني الأندلسي (ت581هـ)، ط. دار الفكر، بيروت (د.ت).

- السيرة النبوية: ابن هشام (ت213هـ)، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).
- الصحيح: الإمام مسلم (ت261هـ)، بشرح الإمام النووي (ت676هـ)، ط(1) دار القلم، بيروت 1407 : 1987.
- طريق الدعوة في ظلال القرآن : أحمد فائز
- عون المعبود شرح سنن أبي داود: شمس الحق العظيم آبادي (ت546هـ) ضبط وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ط(3) دار الفكر، بيروت 1399 : 1979.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (ت773هـ) تح.ابن باز، ط. دار الفكر، بيروت 1421 : 2000.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: الإمام الشوكاني (ت1250هـ)، ط(1) دار الفكر، بيروت 1403 : 1983.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله الزمخشري (ت538هـ)، ط(1) الدار العالمية (د.ت).
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال المتقي الهندي (ت975هـ)، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت 1409 : 1989.
- كيف نتأدب مع رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار: عبد المنعم قنديل.
- لباب التأويل في معاني التنزيل: الخازن (ت725هـ)، ط(1) دار الفكر 1399 : 1979.
- لباب النقول: السيوطي: ت 000 هـ : 000م.
- لسان العرب : ابن منظور (ت711هـ)، دار صادر، بيروت (د.ت).
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي (546هـ) تحقيق المجالس العلمية بالمغرب، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب 1975 : 1395.
- مدارج السالكين: ابن القيم.
- مرشد الدعاة إلى الله: أحمد طاحون.
- المستصفى: الغزالي: ت 000 هـ : 000م.

- المسند: الإمام أحمد بن حنبل (ت241هـ)، تح. عبد الله الدرويش، نشر دار الفكر، بيروت ط (1) 1411 : 1991.
- معالم التنزيل: البغوي (ت516هـ)، بهامش لباب التأويل للخازن، دار الفكر 1399 : 1979.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين ابن هشام (ت761هـ)، تحقيق مازن المبارك، محمد علي حمد الله، مراجعة سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق، ط(1) 1384 : 1964.
- موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف: محمد السعيد زغلول، ط(1) عالم التراث، بيروت 1410 : 1998.
- بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعرابا وتفسيرا بإيجاز: بهجت عبد الواحد الشيخلي، ط(1) مكتبة دنديس، عمّان 2001 : 1422.
- الميسر في القراءات الأربعة عشرة: محمد فهد خاروف، محمد كريم راجح، ط(1) دار ابن كثير، بيروت 1416 : 1995.
- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: أبو بكر ابن العربي المعافري (ت546هـ) دراسة وتحقيق عبد الكبير المدغري، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب 1408 : 1988.
- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: ابن حزم الأندلسي (ت456هـ) تحقيق عبد الغفار البنداري، ط(1) دار الكتب العلمية، بيروت 1406 : 1986.
- النشر في القراءات العشر: ابن الجزري (ت833هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
- نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار: الشوكاني (ت1250هـ)، ط(1) المكتبة العصرية، بيروت 1421 : 2000.
- هذا الحبيب.. أبو بكر الجزائري.

5

مسرد المحتوى

الموضوع	ص
* الإهداء	5
* مقدمة	7
1) وجوب اتباع الكتاب والسنة وعدم مخالفتهما :	13
2) التأدب مع رسول الله ﷺ صفته وفضيلته وأبعاده :	32
3) مسؤولية التبليغ وخطورة الإعلام :	52
4) إصلاح ذات البين واجب، والعدل أساس المحبة، والأخوة سبيل الرحمة :	74
5) علاج ثلاثة أمراض اجتماعية ناخرة :	101
6) علاج ثلاثة أمراض موبقة :	120
7) الوحدة والمساواة والتعارف أصل العلاقة بين البشر والاستقامة أساس التفاضل بين الناس :	148
8) التصديق شرط الإيمان والطاعة شرط القبول :	172
9) من صفات المومنين الصادقين :	189
10) الهداية من الله، والمن منه سبحانه، وهو البصير العليم:	202
* خاتمة	219
* المسارد العامة :	
1 ـ مسرد الأحاديث النبوية	224
2 ـ مسرد المطالب البلاغية	226
3 ـ مسرد المطالب المعرفية	230
4 ـ مسرد المصادر والمراجع	233
5 ـ مسرد المحتوى	237

رضوان ابن شقرون

- ولد بمدينة فاس في 30 شوال 1363 الموافق 02 أكتوبر 1944
- تابع دراسته الابتدائية بإحدى المدارس الوطنية، والثانوية بثانوية القرويين بفاس، والعالية بجامعة محمد الخامس.
- عمل مدرسا لمادة اللغة العربية والتربية الإسلامية بالثانوي 12 سنة.
- ثم أستاذا بكليات الآداب بفاس / ظهر المهراز، والدار البيضاء / ابن مسيك والدار البيضاء / عين الشق، وبالمعهد العالي لتكوين الأطر الدينية بالدار البيضاء، طيلة 25 سنة.
- درّس مواد: الأدب الإسلامي، البلاغة والنقد الأدبي، فقه السيرة النبوية، القرآن الكريم تفسيره وعلومه، علوم الحديث، التصوف الإسلامي، فن الخطابة.
- خطيب واعظ بمسجد الهدى، والمسجد المحمدي، ومسجد الحسن الثاني، وبغيرها من المساجد بمدينة الدار البيضاء، وبمساجد كثيرة بباريس، وبركسل، وآنفرس، وروتردام، وأمستردام، ولندن، والمنامة.
- محاضر في أندية ومؤسسات ومعاهد في المغرب وفي بعض الدول المشرقية والأوربية.
- تقلد مناصب إدارية ببعض الإدارات المركزية والجهوية.
- أسس ورأس تحرير بعض الصحف والمجلات.
- انتسب إلى كثير من الجمعيات الثقافية والاجتماعية وأسهم في تأسيس بعضها ورأس بعض لجانها أو فروعها.
- له مجموعة من الأبحاث والدراسات في موضوعات: الأدب والنقد والفكر والثقافة الإسلامية. منها:
- تحقيق كتاب «الروض المريع في صناعة البديع» لابن البناء المراكشي المعروف بالعددي ط (1) دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1406 : 1985.
- صنعة: التفسير اللغوي للقرآن الكريم من خلال (لسان العرب) لابن منظور: مخطوط.
- تأليف كتب:
  * الإشراق الفكري والأدبي في المغرب المريني، ابن البناء العددي أنموذجا: مخطوط؛
  * رحلة الخير: الحج والعمرة والزيارة، ط (1)، الرباط 1419 : 1998؛
  * قبسات من نور القرآن العظيم، ط (1) رمضان 1423 : نونبر 2002؛
  * خطبة الجمعة، المنهج والمقاصد في ضوء الكتاب والسنة، نشر المجلس العلمي المحلي بالدار البيضاء، ط (1)، الدار البيضاء 1426 : 2005 / ط (2)، الدار البيضاء 1426 : 2005؛
  * النجاح في اللغة العربية للسنة الأولى من سلم البكالوريا (بالاشتراك) 1427 : 2006؛
  * الدليل العملي للحاج والمعتمر والزائر، ط (1) الدار البيضاء شوال 1428 : أكتوبر 2007 / ط (2) الدار البيضاء ذو القعدة 1429 : نونبر 2008؛
  * تبصرة.. وذكرى.. ضمن سلسلة: «من أجل مجتمع صالح» (1)، ط (1) الدار البيضاء رمضان 1423: غشت 2011.
- عدة أبحاث ومقالات متنوعة منشورة في صحف ومجلات مغربية ومشرقية.

❖ ❖ ❖

العنوان: ص.ب. 4656 الفداء - الدار البيضاء 20551 -

المملكة المغربية

الهاتف: 289 621 522(0) 212 00

الناسوخ: 543 611 522(0) 212 00

المحمول: 737 413 661(0)212 00

البريد الإلكتروني: E-mail : r.ben1944@gmail.com